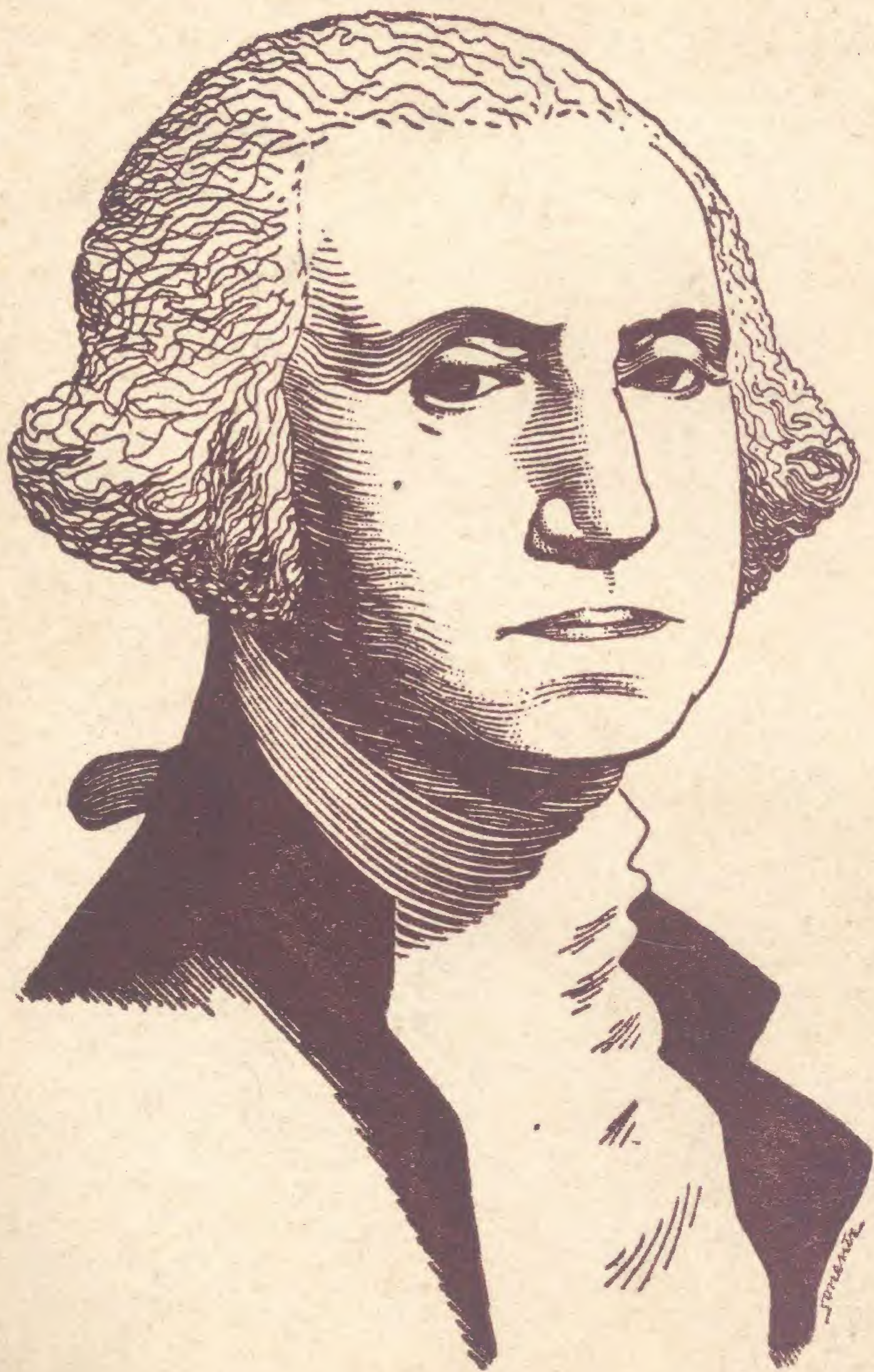


چینیقیف فوستر



جورج واشنگٹن

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

لسيعة

جورج واشنطن

مكتبة للشباب
چينيقيش فوستر

ترجمها للعربية
اميت مرسى قندیل

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية

"GEORGE WASHINGTON"

An Initial Biography

By

Genevieve Foster

Published By Permission

of

Charles Scribner's Sons,

New York.

الأسرة

فى الثانى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٧٣٢ ، حوالى الساعة العاشرة صباحاً بمزرعة تبغ فى فرجينيا ، أقدم مستعمرات ملك الانجليز بأمريكا ، كان السيد أوغسطين واشنجطن يترقب حدوث أمر ذى بال ، وقد أخذ منه القلق كل مأخذ ؛ فجعل يسير على مهل ذهاباً وحيئة ، قبالة الموقد ، وخلف باب مغلق فى حجرة الجلوس ببيته الصغير ذى السقف المنخفض الذى يُطل على نهر « بوتوماك » .

وكان يُخرج من جيب صِداره الفينة بعد الفينة ، ساعة ذهبية كبيرة ، فينظر إلى عقربها ، ثم يقارنهما بعقربى ساعة الحائط الطويلة القائمة فى ركن من أركان الحجرة ، وهما لا يكادان يتحركان . ثم سار إلى حيث النافذة ، ووقف أمامها ، وقد انفرجت ساقاه المكسوتان جوربين أبيضين يضربان إلى الصفرة ، إحداهما عن الأخرى ، وانعقدت يداه خلف ردائه الأرجوانى ، وجعل ينظر من زجاج النافذة ذى المربعات الصغيرة يتأمل صباح الربيع الناضر .

وفجأة سمع صوت المزلاج يتحرك ، وانفتح الباب القائم خافه ، فبرزت منه أخيراً زنجية عجوز تحمل فى يديها لفافة بيضاء ؛ قالت ، وعلى وجهها الأسود اللامع ابتسامة عريضة : هاكه يا سيد واشنجطن ، إنه لصبي ممتلىء جميل ، وقدمت إليه الطفل كى يراه وهى فخورة معترزة .

وبعد عدة أيام جرى البحث عن اسم للطفل ، فقالت أمه :
نسميه « جورج » . فهو ابنها البكر ، وتود أن يكون اسمه على اسم
الرجل الذي كان وصياً عليها .

وعندئذ صاح زوجها ، وقد بدت عليه الدهشة : أتريدين
أن تسميه جورج واشنجطن ؟

نعم ان جورج اسم ملايكنهم ، ما في ذلك شك ؛ ولكن من
الذي سمع بأحد من أسرة واشنجطن اسمه جورج ؟
ان أوغسطين ولورانس اسمان شائعان في الأسرة ، وكذلك
اسم چون ، فهو اسم جده أول من هاجر من إنجلترا ، من أسرة
واشنجطن ، منذ ستين سنة ووفد على فرجينيا يزرع التبغ في هذه
المزرعة عينها التي تطل على نهر بوتوماك .

ولكن السيدة ماري بول واشنجطن كانت قد عازمت أمرها ،
ووافقتها زوجها على ما اعترفت . فعند تعميد الطفل في شهر ابريل ،
سموه بالاسم الذي جعله شهيراً يجرى على كل لسان .

بدأ جورج واشنجطن الصغير يتعلم المشي ؛ وقبل أن يثبت
على قدميه ، رزق أختاً سموها بيتي ؛ فكانت طفلة جميلة لها عينان
عسائتان مثل عيني أخيها ، وشعر أسمر ضارب إلى الصفرة ؛ وسرعان
ما بدت صورة كاملة لأخيها هذا حتى كأنها توأم له .

وفي السنة الثانية كان أخ صغير لجورج اسمه « سام » يتأرجح
في مهده ؛ وما إن بلغ جورج السادسة وصار في استطاعته أن يبعد
عشرة ، ويركب حصانه الصغير ، ويركض به في شتى أرجاء المزرعة ،

حتى صار له ثلاثة إخوة : هم سام ، وجون ، وتشارلى .
وذات يوم أنبأ الوالد أهل بيته أنهم سينتقون من هذا البيت
إلى آخر غيره ؛ فقد اشترى مزرعة جديدة اسمها « فرى فارم »
تقع على نهر « رباهانوك » .

ولم تكن هذه بأول مرة تنتقل فيها الأسرة من بيت إلى بيت ،
ولكن جورج لم يتذكر ذلك الانتقال . أما هذه المرة فقد راعه أن
أن يرى كل شيء يحزم ، وأن يركب هو عربة يظل فيها اليوم
كله من الصباح الباكر ، تسير به وسط الغابات ، وعلى طريق
وعشاء غير ممهدة ، وأخيراً يرى ذلك البيت الذى تغرب الشمس
خلفه ؛ وهو بيت مطلى بأون أحمر قائم على ربوة عالية وسط
أشجار الصنوبر .

وكان هذا البيت مكوناً من ثمانى غرف ، جعل جورج وأخته
بيتى بجريان فيها ويعدها واحداً واحداً ، ثم يسرعان فيصعدان
السلام ثم يعودان فيهبطان إلى الدور السفلى ، ويفتحان كل ما يصادفهما
من الأبواب ، ومرافق المنزل ، ويرقبان الأمتعة ، أثناء نقلها إليه
ويريان إعداد الفرش ، ويسألان عن المواضع التى سينام فيها كل
فرد من أفراد الأسرة .

وفى بكرة اليوم التالى خرجا يستكشفان ملحقات الدار ،
ويتفرجان على معامل الألبان ، والمخازن والمطبخ وسائر الأمكنة
المستقلة عن المبنى الكبير ، ويشاهدان الحظائر والبئر . ثم انحدرا
على سفح الربوة كى يشاهدا النهر و « المعديّة » .

أما النهر فقد خيب آمالها ؛ فهو لا يعدو أن يكون مجرى صغيراً
إذا ما قورن بنهر البوتوماك . أما « المعديّة » فكانت مدهشة
حقاً ، لأنها تبدأ مسراها من رصيف عند مزرعتيها ، وتنقل الناس
والدواب عبر النهر إلى مدينة فردريكسبورج .

وكانت لها عمة اسمها ميلدرد ، تسكن مدينة فردريكسبورج
هذه . ولم يكن جورج قد رأى مدينة ما في حياته قبل زيارته
وأخته لهذه المدينة ؛ ففيها أشياء كثيرة يتفرجان عاينها ... بيوت
وحوانيت متراصة ، ومخازن كثيرة للتبغ تقوم على الرصيف عند
النهر ، ومحكمة إقليمية ، وسجن مبنى بالحجر ، وكنيسة ذات برج عال .
وكان للسيد ماري القسيس ، واعظ المدينة ، مدرسة ، يخرج
تلاميذها عند الظهر ليلعبوا في الفناء . ورأى جورج مرة خمسة أو
سنة من هؤلاء التلاميذ في دكان العطار يشترون منه الحلوى المصنوعة
من السكر الأحمر ، فتمنى لو كان واحداً منهم ، .. ولم لا ؟
لقد قاربت سنه السابعة ، وعلمه السيد « هوبى » كيف يعد الأرقام ،
فما الذى يحول دون التحاقه بمدرسة فردريكسبورج مع التلاميذ
أمثاله ويركب « المعديّة » كل يوم يعبر بها النهر .

سفينة التبغ

ما كاد جورج واشنجتون يستيقظ من نومه ويفتح عينيه صباح يوم من شهر أبريل حتى هب من فراشه ؛ ومع أنه استيقظ هذا اليوم أبكر مما اعتاد فقد سارع إلى ارتداء قميصه وسراويله اللدناء ، وشدها على وسطه من الخلف بأسرع مما يستطيع ، فليس لديه دقيقة واحدة يضيعها من وقته . فاليوم يوم شحن السفينة .

وذلك أن سفينة كبيرة وصلت من بلاد الانجليز منذ بضعة أسابيع حاملة أشياء طريفة لكل فرد من أفراد الأسرة ... أحذية جديدة ، وقبعات ، ولعب ، وأدوات شتى ، وأطباق وغير ذلك من الأشياء الدقيقة المصنوعة في إنجلترا . والآن فان هذه السفينة تشحن تبغاً ، لتعود به إلى بلاد الانجليز .

فأسرع جورج وهبط السلم ، ونادى في طريقه كلا من بيتي وسام ، وخرجوا جميعاً إلى حيث الكأ الندى يجرون كلهم في الطريق المغطاة بأشواك الصنوبر اللينة متجهين نحو النهر . ومن طرف الرصيف ، كان جورج يستطيع أن يشاهد السفينة بسارياتها الثلاث ، ويرى ثلة من الرجال وقفوا عند منتصف الطريق : وهم أبوه ، والربان ، وناظر المزرعة ، وعشرة أو اثنا عشر من الزنوج الذين يعملون في نقل البراميل .

فكان يسمع هؤلاء الرجال يصيحون : يا ولد ! مستعد ؟ نحل سبيله ! وذلك كلما أرسلوا برميلاً ضخماً إثر برميل آخر ضخم

مثله ، فيتحدرج على المنحدر فوق « السقالة » إلى أن يصطلك عند الرصيف ثم يستقر آخر الأمر في عنبر السفينة .

تسلق جورج أحد هذه البراميل ووقف عليه ليكون بمنأى عن حركتها ، ويرى في الوقت ذاته كل ما يحدث .

وما لبث أن سمع صرخة طويلة ، فقد أفلت الحبل ، وضل أحد البراميل طريقه فاندفع يهوى على المنحدر نحو البحر ؛ وأولا أن الواقفين على الرصيف استطاعوا أن يصدوه في الوقت الملائم لهوى في الماء وضاع . ولا شك أن ضياع برميل يمثل هذا الشكل الأخرق أمر يدعو إلى الأسف . فالتبغ يستعمل في فرجينيا بدل النقود ، ولكن جورج لم يكدر يدرى على وجه التحديد مقدار الأشياء التي يمكن أن تشتري من إنجلترا ببرميل واحد من التبغ ، على حين كان والده يقول إن مقدار ما يشتري لا يمكن أن يعادل قيمة ما في البرميل من التبغ . ثم تحدث إلى ربان السفينة فيما بعد في هذا الشأن ، وهما يتناولان فطوراً ثانياً مع أفراد الأسرة هذه المرة .

ولم يكن جورج حتى ذلك الوقت قد شعر بعد بالجوع ؛ أما الآن ففي معدته الحاوية متسع « لكفتة » السمك واللحم المقدد ولعدة أقراص من الخبز المصنوع من دقيق الأذرة ، ولثلاثة أقداح كبار من اللبن ، وبضع كعكات يتناولها الواحدة بعد الأخرى كل مرة يأتي فيها صبي الطاهي بالكعك ساخناً من المطبخ .

وسمع جورج والده يقول لربان السفينة : « انه لما يشبط همة المرء منا ، أن ما نحصل عليه في مقابل التبغ يتناقص عاماً بعد عام

فالتجار في لندن هم الذين يحددون الأسعار ، فماذا بوسعنا أن نفعل في هذا الشأن ؟ »

فهز الربان رأسه ، وأقسم إنها لمشكلة حقاً . وشرح مدى صعوبة المحافظة على التبغ جافاً أثناء نقله في البحر . ثم تحدث إلى الوالد عن الرحلة ، فقال : إنه إذا أسعدهم الحظ وواتهم الريح والجوفى وسعهم أن يقولوا انهم سيعودون عبر المحيط في ثلاثة أشهر .

وكان جورج يصغى إلى كل كلمة ينطق بها الربان . ولا شك في نظره أنه شيء رائع أن يكون المرء رباناً لسفينة من سفن التبغ . وتبني لو أنه يلبس يوماً ما تلك الحلة الزرقاء ذات الأزرار الفضية ويبهر إلى بلاد الانجليز ويعود منها في رحلات ذات خطر وشأن .

أخوه الكبير لورانس

قف ! كتماً سلاح ! إلى الأمام سر ! - نداءات كانت تتردد في أرض فضاء بمدينة فردريكسبورج حيث كانت فرقة من الجند يتحرك أفرادها جماعة ذهاباً وجيئة وهم يتدربون عسكرياً في تلك الساحة استعداداً للحرب .

وكان اليوم المدرسي قد انتهى ، وصرف القس ماري تلاميذه ، فاندفع جماعة منهم (وفيهم جورج نفسه) تراوح أعمارهم بين الثامنة والتاسعة يتفرجون على الجند وهم يتدربون ؛ فجعلوا يتعرفون على أصحابهم وأقاربهم . وإذا بأحد التلاميذ يصيح : ذاك هو يا جورج ! الضابط ... انه أخوك الأكبر لورانس !

اليوزباشي لورانس واشنجطن ! لقد سبق لجورج أن رآه حقاً ، فجعل قلبه يخفق بسرعة عظيمة حتى خشى أن يلحظه الصبيان فيلومونه على إسرافه في اعتزازه العظيم بأن له أخاً كبيراً يعمل ضابطاً ويرأس هذه الفرقة .

ولم يكن جورج قد عرف أخاه الكبير هذا منذ زمن طويل ، فهو لم يعرفه إلا منذ عاد من إنجلترا ؛ ولكنه كان كثيراً ما يسمع عن لورانس ، وعن أوغسطين ، أو أوستن كما كانوا يدعونه عادة ، وهما أخواه غير الشقيقين .

فبعد ميلاد جورج بقليل كان لورانس في الرابعة عشرة من عمره ، وكان أوستن في الثانية عشرة ، وقد أرسلهما والدهما إلى إنجلترا

ليدرسا في المدرسة التي تعلم هو فيها من قبل، والتي سيذهب إليها جورج يوماً ما عندما يكبر، والتي لا زال أوستن يتعلم بها. أما لورانس فقد عاد إلى أمريكا وقد بلغ الثالثة والعشرين ربيعاً وأصبح يوزباشياً يرأس فرقة الجند التي رآها جورج تتدرب في فردريكسبورج. وعلم جورج من أخيه لورانس أنه في طريقه إلى ميدان القتال، فقد نشبت الحرب بين إنجلترا وإسبانيا.

ثم جعل لورانس يشرح لأخيه جورج أنهم الآن يحاربون في جزائر الهند الغربية في الناحية الأمريكية من المحيط الهادي، وقص عليه كيف استولى أمير البحر الانجليزي واسمه « فرنون » على حصن من الحصون الإسبانية، وكيف أن الملك طلب من المستعمرات في أمريكا أن تعد فرقاً من الجند وترسلها إلى ميدان القتال للاشتراك في هذه الحرب، فانضم إليهم لورانس.

وليلة حضر لورانس إلى المدينة ومعه سيفه الجديد أذن لأخيه الصغير أن يلمس نصله الصقيل، وأن يجرب معطف حلته الجديدة، وأوصاه أن يحترس من أن يطأ ذيلها من الخلف.

وبعد بضعة أسابيع شاهد جورج أخاه لورانس وفرقته من الجنود يركبون سفينتهم ويرحلون وسط أصوات المزامير ودقات الطبول وصليل السيوف وهتاف الشعب؛ فأصبحت المدينة بعد رحيلهم مكتئبة فارغة في نظر الأطفال، وظلت كذلك إلى أن خطرت لأحدهم فكرة نيرة؛ فسارعوا جميعاً إلى تلك الأرض الفضاء يذرعونها غادين رائحين كأنهم الجند وفي أيديهم عصي أو سيقان أذرة على أنها

سيوف وبنادق حقيقية . وبعد سنتين انتهت الحرب ، وعادت الجنود إلى أوطانها . وكان جورج قد كبر وطالت قامته ست بوصات ، وصار أسرع عدواً ، وأقدر على ركوب الخيل ، وأصبح يلقي الأحجار إلى مرمى أبعد مما يستطيع أن يرميها أى صبي آخر في العاشرة من عمره .

وعاد أوستن إلى وطنه ومعه هدايا وطرف متنوعة لكل فرد من أفراد الأسرة أحضرها لهم من إنجلترا ، فلأبيه خطابات وجرائد ، ولزوجة أبيه شايًا ، ولإخوته الصغار كتباً ولعباً شتى . فلا غرو أن أحب جورج أوستن هذا ، فهو شفيق به ، كثير العطف عليه ، يعامله معاملة الصديق . ولكنه مع ذلك لم يكن ليحل محل لورانس ولذا ظل قلقاً جزوياً حتى عاد لورانس .

و ذات يوم عاد لورانس فعلاً . وما أكثر ما كان في جعبته من قصص تدور كلها حول المعركة التي اشترك فيها وعلى قائدها أمير البحر فرنون الذي بلغ من الشجاعة والمهارة مبلغاً لا يبارى . وكان لورانس أسمر اللون ، جميل المحيا ، تلتمع عيناه وتتحرك يداه بإشارات سريعة سهلة . فجلس جورج أمامه على مقعد منخفض يتأمله ويستمع إلى أحاديثه وهو مأخوذ بما يسمع ... فلم يكن في الوجود أحد أروع من أخيه لورانس هذا ، ولا أبعد منه . ولكن أمه لم تكن بالطبع من رأيه ؛ فهي ميالة إلى ابنها هي ، فهو في نظرها أصلب عوداً وأقل نخافة من لورانس ، ذلك إلى أنه أشبه ما يكون بأفراد أسرتها من آل بولز .

أما والدهم فكان يسوى بين أولاده جميعاً في حبه إياهم على أنه من الطبيعي كذلك - وكما هي العادة والعرف عند كل انجليزى - أن يعنى بابنه البكر خاصة لأنه هو الذى سيكون عميد الأسرة يوماً ما .

* * *

ولم يكن جورج قد جاوز الحادية عشرة عندما توفى أبوه فجأة في شهر أبريل ، حين كانت الحقول زاهية بخضره أوراق شجر التبغ . ولم يكن جورج في المنزل حينذاك لأنه كان غائباً عن البيت في زيارة لبعض بنى عمومته ؛ فجاءه الرسول ليعود به إلى المنزل لأن أباه قد اشتدت به العلة .

فحضر جورج على وجه السرعة وصعد على أطراف قدميه إلى تلك الحجرة المظلمة حيث وجد أباه ممدداً على سريره ممتقع اللون وفي شكل غير مألوف .

وبعد قليل فارق الحياة . وظلت أم جورج دامعة العينين . ولما حل ميعاد الجنازة ارتدى الأطفال خير ملابسهم وعقدت بيتى على رأسها شريطاً أسود اللون . ثم جاء دور قراءة الوصية التى كتبها والدهم قبل وفاته ، فتبين أنه قد نص فيها على أن يوثل الجزء الأكبر من التركة إلى ابنه الأكبر - لورانس ، بحسب ما جرى عليه العرف . وبعد أن تمت قراءتها لحظ جورج أن وجه أمه قد اربد وعلاه الاكتئاب : فقالت بصوت فيه رنة الأسى ، ستتغير أحوالنا يا بنى تغيراً كبيراً . فليت شعرى كيف سندبر أمور عيشنا بعد ذلك ؟ لست أدري والله ، فأنت يا بنى المسكين ، لم يعد فى الإمكان أن تعمل

ما كنت تعمله لو ظل أبوك العزيز على قيد الحياة .
وكان معنى هذا أنه لن يستطيع الالتحاق بالمدرسة في إنجلترا ،
وذلك أمر لم يغرب عن ذهن جورج . ولكن لاشك في أنه لا يعنى
أنهم لن يجدوا ما يكفيهم من المأكول والمشرب . فهذا لن يكون مطلقاً
ما دامت لهم مزرعة فرى فارم . ألم يذكر أبوه في الوصية أن المزرعة
ستكون له عندما يبلغ الحادية والعشرين ؟
وهزت أمه رأسها

ومهما يكن الأمر ، فإنها تستطيع أن تظل في تلك المزرعة
ما شاءت ، حتى إذا ما كبر جورج اشترى مزارع جديدة وأصبح
من ذوى اليسار والمال .

ولكن الأم عادت تهز رأسها من جديد ، وسألته وهى مكتئبة
واجمة : أنتى له المال يشتري به الضياع والمزارع ؟
وبالطبع لم يكن جورج يدرى على وجه التحديد . ولكنه مع ذلك
كان واثقاً من أنه سيجد وسيلة ما يكسب بها المال اللازم . وعندئذ
يتسنى له أن يشتري فدادين وفدادين من الأراضى ، ويشحن كل
سنة براميل وبراميل ملأى بالتبغ إلى إنجلترا ويشترى بها كل شيء
يريدونه منها .

آداب السلوك

جلس جورج ذات يوم من أيام الشتاء ومعه كتاب ينسخه .
وهو كتاب أخضر اللون باهتة ، أقامه أمامه بين محبرة من الزنك ،
ووعاء مليء رملاً يستعمل في تجفيف المداد . وكانت في يده تفاحة
قضم منها قضمة ، ثم نغمس في المحبرة قلاماً مصنوعاً من ريش الإوز ،
وكتب في حرص واهتمام في أول صحيفة من صحائف الكراسة
التي معه :

آداب اللباقة والسلوك

في الجماعة وفي المحادثة

وقال في نفسه : هذا ما أبغى . فعندما يذهب لزيارة لورانس
المرّة التالية يكون قد عرف كيف ينبغي أن يسلك كما لو كان قد
التحق بالمدرسة في بلاد الإنجليز وتعلم بها .

وكان جورج قد بلغ الثالثة عشرة من عمره بل أناف عليها . وتزوج
أخواه لورانس وأوستن ، وجعل يتردد عليهما ويقضي عندهما شهوراً
في بعض الأحيان . وقد تطول زيارته حتى ظنت بيتي ، ووطن إخوته
الصغار أنه قد غادرهم وسيعيش بعيداً عنهم . ولكن لا ! فقد كان
دائماً يعود إلى البيت مهما طال غيبته ، فأمه حريصة كل الحرص
على أن يعود .

وكان أوستن يعيش في المزرعة ، ويقطن البيت ذاته الذي

ولد فيه جورج . أما لورانس فقد اتخذ له مزرعة أخرى على نهر بوتوماك بعيدة عن الأولى التي كانت تسكنها الأسرة منذ كان جورج في الثالثة من عمره إلى أن انتقلوا إلى مزرعة « فرى فارم » . ولما كان البيت القديم قد احترق فقد ابتنى لورانس بيتاً آخر جديداً أسماه « ماونت فرنون » تكريماً لذكرى أمير البحر فرنون .

وكانت زيارة جورج للورانس وآن في ماونت فرنون تختلف كثيراً عن زيارته لأوستن وجين في مدينة ويكفيلد . فعلى حين كانت الحياة عند أوستن هنية رغدة وشبهية بحياته في منزله ، كان الذهاب إلى ماونت فرنون بمثابة الانتقال إلى عالم جديد .

فالحياة في تلك المدينة مثيرة تجرى على أحدث طراز . وكان كثيرون من كبار القوم وعليتهم يترددون على ماونت فرنون ، يغدون ويروحون ، منهم كثيرون من ضباط البحرية والجيش البريطانى أصدقاء لورانس الذين سبق أن تعرف بهم في بلاد الانجليز ، كما كان منهم كثيرون كذلك من خير أهل المستعمرات وسراتها . وكانت تقام لهم ولائم فخمة في البيت ، وتعقد مجالس للعب الورق كل مساء ، كما كانت تعد رحلات لقصص الثعالب تبدأ منذ الصباح الباكر . وكان آل « آن » يسكنون مزرعة مجاورة لماونت فرنون ، وكان السير ويليام فيرفاكس ، والد آن ، من خيرة الرجال وأفاضلهم . كان نبيلاً حقاً في كل شيء . وكان له ابن عم لورد يقيم في إنجلترا وهو ثرى واسع الثراء ، ويملك في فرجينيا أكثر من خمسة ملايين من الأفدنة وراء سلسلة جبال البلو ريدج ؛ هكذا يقول لورانس .

وكان أكثر ما يتحدث فيه لورانس والسير ويليام يدور حول موضوع الأراضي . فكانا يتناقشان في خير الوسائل للاستثمار من شرائها ، والاستزادة من المزارع وضمها إلى ما يملكان منها ... وهذا نفسه هو ما ينبغي جورج أن يعمل به ويسعى وراءه .

فتلك كانت الخطوة التي وضعها جورج لنفسه ليسير عليها في حياته يوماً ما ، كما يعيش لورانس في ماونت فرنون . ولم يكن يضايقه سوى شيء واحد . ذلك أن كل إنسان في ماونت فرنون يسلك السلوك الصحيح مع الناس ، ويعرف على وجه التحديد ما ينبغي له أن يفعل من غير أن يقتضيه ذلك شيئاً من التفكير . أما هو فلم يكن يدرى أحياناً إن كان الأولى به أن يجلس أو يقف ، أن يصافح بيده أو يكتب بالانحناء ، ولم يكن يعرف ماذا يفعل بيديه ورجليه ، ولا أين يضعهما . فلا غرو أن نراه قد سركل السرور عندما عثر بكتاب في موضوع آداب اللياقة والسلوك ، وهو أول كتاب استرعى نظره ، فأخذ يتصفحه ويقرأ فيه مقتطفات من هنا وهناك .

فقرأ فيما قرأ : « إن كل عمل عمله أمام جماعة من الناس يجب أن يقترن بمظهر من مظاهر الاحترام لهم ... فإذا ما سعلت أو عطست أو تأوهت أو تشاءبت فاحرص على ألا يكون ذلك بصوت عال ، بل ينبغي أن يكون على استخفاء ... لا تلم والناس يتحدثون ... ولا تجلس وهم وقوف ... لا تبصق في الموقد .. إذا ما دخلت مكاناً ما فارفع قبعتك لمن فيه من ذوى الوجاهة ...

إذا تحدث إليك أحد وأنت جالس فقم ... لا تُظهر الشماتة

بأحد حلت به كارثة ولو كان عدواً لك ... لا تنظف أسناتك
بمفرش المائدة ! » وهكذا ...

أليس هذا هو ما ينشد أن يعرفه ؟ إنها كلها قواعد يجب أن
تتبع . وعددها مائة قاعدة وعشر . فعزم على أن ينسخها كلها .
هذا هو ما يجب عليه أن يبدأ به إذن . وها هو الكتاب قائم
أمامه . فتزود ببضع تفاحات وبخفنة من الجوز وقطعة من السكر
الأحمر ، وأعد ريشة فجعل لها رأساً مستديراً ثم كتب عنوان الكتاب .
وظل ينسخ منه ذلك اليوم كله ما استطاع أن ينسخ من صفحاته .
ونسخ في اليوم التالي أكثر مما كتبه في اليوم الذي قبله . وظل ينسخ
وينسخ حتى بلغ القاعدة رقم ١١٠

وكانت تقول : « اعمل على استبقاء الشرارة » السموية ، التي
نسميها الضمير ، حية في صدرك » ، وكتب لفظه « السماوية » خطأ .
ولكنه ختم ما نسخه ببضع زخارف وحلى وبالكلمة اللاتينية
التي معناها :

« انتهى »

لقد ألمّ بقواعد السلوك الآن ، ولم يبق عليه إلا أن يتدرب
عليها ، فيجعل أخاه لورانس يفخر به .

البحر أم المساحة

كان المساحون يعمالون ذات يوم في مسح قطعة أرض فضاء بمدينة فردريكسبورج كان الجنود يتدربون فيها التدريب العسكري. وكانوا مشغولين بتخطيط شارع جديد، فمنهم جماعة يجرون «الجنازير»، وآخرون ينقلون «الشواخص» من مكان إلى مكان، ثم ينظر كل منهم بإحدى عينيه في آلة «البوصلة» القائمة أمامه على حامل ذي ثلاثة أرجل، ويحركون سواعدهم حركات معينة.

ووقف جماعة من الصبية يرقبونها ويتفرجون عليهم، وكان جورج معهم؛ وكانهم في الرابعة عشرة من أعمارهم أو يزيدون عاينها يتلهفون على أن يسمح لهم بأن يساعدوا الجنود فيما يعمالون. وحدث أن جندياً غادر محله قبل زملائه فرآه جورج وانتهز غيابه فرصة طيبة ليحل محله. وبينما هو يعمل في جمع «الجنازير» سأل عن الأجر الذي يتناوله مساعد المساح عادة، فأعطاه الجواب فكرة عن الأجور، وعانها في ذاكرته.

ثم جرى نحو «المعدية»، ولكنها كانت بارحت ضفة النهر، فاضطر إلى الانتظار وساوره القلق، لأن الظلام سيكون قد أرخى سدوله عند عودته.

وفي الصباح الباكر كان جورج في البيت ينقب في الخزن حتى وجد ما ينشده خلف عجاة مغزل قديمة، وتحت كرسي عتيق ذي مقعد ممزق من الجلد الأحمر. وكان ما يبحث عنه صندوقاً

كبيراً قائم اللون، له يد من حديد، ومربوط معه حزمة من العصي —
وكلها أدوات قديمة مما يستعمله المساحون في قياس الأراضي —
وكانت ملكاً لوالده .

فلما نشر أرجل الحامل الثلاث وأرساها على الأرض، أخرج «البوصلة»
وثبتها حيث تلتقي هذه الأرجل ، إذا به يصيح أن الأدوات سليمة
كلها ! فهذا هي قد توافرت له الآن، فأجمع أمره على أن يكون
مساحاً . ولكن المساح يجب أن يكون ملماً بالرياضة . على أن هذه
أمرها هين ؛ لأن المستر ويليامز الذي يقطن على مقربة من أوستن ،
مدرس قدير . ذلك إلى أنه إذا حدث وحصل على وظيفة مساح
كان لديه مجال فسيح ليتعلم التخطيط والقياس من كثرة ما يلاحظ
المساحين وهم يقومون بعملهم . وكان واثقاً من أن لورانس أخاه
سيُقرر هذا الرأي ويراه معقولاً . فإذا ما حذق العمل وأتقنه فإن
الكولونيل فيرفاكس أو لورانس سيدعوه في يوم من الأيام ليقوم
بمسح مزرعة جديدة له .

ولكن قبل أن يتحدث جورج إلى أخيه في هذا الموضوع ،
وصلاه خطاب منه يعرض عليه فيه فكرة جديدة، وهي فكرة رائعة
حقاً، حتى أنه ظل عدة أسابيع لا يفكر في شيء غير الانخراط في
سلك البحرية .

هذا هو ما يريد

فقد قال له لورانس : ما رأيك يا جورج في الانضمام إلى
البحرية فتصبح يوماً ما ضابطاً من ضباطها ؟ فلديه من الأصدقاء

من يثق بأنهم سيعاونونه على الحصول على وظيفة له فيها .
يعمل في البحر ؟ ويصبح ضابطاً من ضباط البحرية البريطانية !
وعندئذ تدفقت عليه الحواطر والأحداث التي كان يقصها عليه
لورانس بشأن أمير البحر فرنون . فهل يتيسر له يا ترى أن يبدأ
عمله ثم يظل يتدرج في سلم الرقي حتى يصبح ذات يوم أمير البحر
واشنجطن ؟ ثم تخيل نفسه وقد ارتدى حلة براقة محلاة بالذهب ،
وفي قبعته ريشة بيضاء ترفرف على رأسه .

ثم لم يلبث أن نزل من سماء الأحلام إلى الأرض الصلبة ،
فهو لم يتخط بعد الرابعة عشرة من عمره ، ولن يتيسر له الالتحاق
بالبحرية إلا بموافقة أمه ورضائها . وكان لورانس قد أفصح له
في خطابه عن خشيته من أن أمه لا توافق . وفعلاً فإنها لم ترض ،
فقد أجابت « لا » ! بالنفي القاطع .

أفرسل ابنها العزيز عليها ليعمل في البحر — في ذلك المحيط
المريع المليء بالأخطار ؟ إنها لن تستمع إلى شيء من ذلك . وكل
ما يمكن أن تفعله في هذا الشأن هو أن تكتب إلى أخيها جوزيف
في إنجلترا تستشيره في الأمر . وسرها كل السرور أن يجيئها الرد
بعد عدة أسابيع بالإجابة التي نتوقعها . وإليك شيئاً مما جاء في
خطابه .

أختي العزيزة

يبدو لي أنك تفكرين في إلحاق ابنك بالبحرية . وفي رأي أن
الأولى به أن يعمل صبيّاً عند سمكري من أن يكون نوتياً أمام

السارية ، فاسوف يذيقه رؤساؤه صنوف العذاب ، فيضربونه ويلهبون جسمه بالسياط ، ويعاملونه كما تعامل الكلاب . أما من حيث ترقيه في البحرية فذلك أمر غير منظور ، ولو حدث وترقى حتى صار رباناً لسفينة من سفن فرجينيا ، فان مزارعاً يملك ثلاثمائة فدان أو أربعمائة ، وثلاثة أو أربعة من العبيد ، لاشك يكون أسعد منه حالاً وأرغد عيشاً ، هذا وإنى أدعو الله أن يحفظك ويحفظه .

أخوك المحب

جوزيف بول

على أن هذا الرد لم يكن مما يدهش له جورج . فقد كان يتوقع شيئاً مثل ذلك الرفض ، فهو لم يخيب أمله بقدر ما كان يمكن أن يخيبه إذا لم يتأخر الرد ذلك الزمن الطويل ، ففيما هو في انتظاره استأنف عمله في مسح الأراضي ، ولم يلبث حتى نسي كل شيء لا يستطيع أن ينجزه في زحمة قيامه بما يستطيع أن يؤديه فعلاً . .

وبعد ثلاثة أشهر أجز له أن يضطلع وحده بعملية مسح كاملة قام بها لأول مرة من غير أن يعاونه فيها أحد . . وانا لنقرأ تحت الأرقام التي دونها في كراسة الحقل الخاصة به تاريخ هذا العمل ، وهو ١٨ أغسطس سنة ١٨٤٧ ، وكان وقتئذ في منتصف السنة السادسة عشرة من عمره .

ثم بعد زمن غير طويل جاء ذلك اليوم العظيم الذي نال فيه جورج أجراً على عمالية مساحية قام بها ، فقد حصل على هذا الأجر نقداً صحيحاً ، وعاد إلى بيته ليلاً وفي جيبه جنيتان وخمسة شلنات

جعلته يشعر أنه قد أصبح رجلاً حفاً ومساحاً فعلاً .
وغادر جورج «فرى فارم» هذا الربيع وقد أناف على الخامسة
عشرة ، حاملاً أدوات المساحة ، وكراسته ، وموسى جديدة (وان
لم يكن بحاجة ماسة إليها) ليعيش مع أخيه غير الشقيق ، اورانس ،
في ماونت فرنون .

وهناك عرف أن اللورد فيرفاكس — ذلك الثرى الذى كان
جورج يتلهف على رؤيته ، والذى قيل إنه يملك وحده أكثر من
خمسة ملايين من الأفدنة — قد وصل توأ من بلاد الانجليز .

اللورد فيرفاكس - صديق جديد

سرعان ما أحب اللورد فيرفاكس، أخا لورانس واشنجنطن هذا، كما أن جورج راعه كل الروعة أن يرى هذا اللورد الثرى وإن كان قد دهش أول الأمر أن يجده أشد جفوة من ابن عمه السير ويليام وأكثر منه إيجازاً في كلامه .

ولم يكن اللورد يحفل أى احتفال بالنساء، ولذلك كان يجلس وحده في ركن قصي من أركان الحجرة يتظاهر بالقراءة، والقوم يتسامرون .

ففى ليلة صاحبة النجم من ليالى الشتاء، وفى عطلة الميلاد كان الهو الذى عند مدخل بيت آل فيرفاكس الواسع مكسواً بالخضرة ومضاء بكثير من الشمع، استعداداً لحفلة رقص تقام فيه . فلما عزفت الموسيقى ببداية الرقص انحنى الرجال وقد ارتدوا حلالاً من الأطلس، أمام السيدات اللاتي اختاروهن للرقص معهن، على حين وقف جورج بالباب يشاهد الجميع وهم يرقصون .

وكان لورانس وزوجته « آن » أول من نزل إلى المرقص وتلاهما جورج فيرفاكس - أخو آن - وخطيبته سالى كارى، الحسناء الفاتنة، وكانت ترتدى ثوباً قرنفلى اللون، ورشقت فى شعرها الأسمر وردة، فبدت أروع فتاة وقع عليها نظر جورج . ولما لمح أختها الصغرى تمنى أن يدعوها للرقص معه، ولكنه تردد فلم يجسر، ثم عاد وتشجع ودعاها فلبت طلبه، على أنه لم يلبث أن ندم على ما فعل

وتمنى أن لم يفعل ، لأنها دأبت تذكره أكثر مما ينبغي بحبه لفتاة تعرف باسم « لولاند بيوتى » هجرته هجراناً غير حميد حطم فؤاده . ولكن الأمر قد خرج من يده ، ولم يعد يستطيع أن يهرب من الرقص معها ، فأخذ يدها واستبقاها مرفوعة ، ووجه كل همه إلى الرقص لا إليها نفسها .

وقال السير ويليام وهو يتحدث إلى اللورد فيرفاكس « ان جورج الصغير هذا فنى حسن السلوك لولا أنه مع الأسف حي نحجول من النساء » .

فقال ابن عمه الشيخ العجوز النحيل : « لا ! لا ! ان ذلك لينسيه الكثير من دواعى الحزن » .

قال ذلك اللورد فيرفاكس والتأثر باد على وجهه . فالشائع بين الناس أنه إنما جاء إلى أمريكا كي ينسى حبه لسيدة حسناء قست عليه كل القسوة ، فحضر إلى هنا ليدفن نفسه مع كتبه فى البرية وعزم على أن يبني له داراً ومستقراً فى أراضيه التى تقع وراء سلسلة جبال البلو ريدج . فهو لم ينزل عند ابن عمه إلا ريثما يتم بناء داره .

هذا وقد ازداد حبه السريع لجورج قوة على مر الأيام والشهور ، فقد أعجب بالأسلوب الذى يمتطى به جورج حصانه ، وبالطريقة التى يعالج بها شئون كلاب الصيد عندما تخرج الجماعة للقنص والطراد . كما أنه أحب فيه رزاقته واستقامته مع من هم أسن منه ، وأعجب بدقته التى يلتزمها فى كل ما يقوم به من أعمال المساحة

فهو يقيس لك حوضاً لزراعة الكرنب ، بالعناية نفسها التي يراعيها
عندما يخطط طريقاً عاماً باسم الملك .
فسأله ذات يوم : « ما رأيك في أن تقوم لي ببعض أعمال في
مسح الأراضي ؟ » ثم جعل يشرح له الأمر ، قبل أن يستعيد جورج
أنفاسه المبهورة التي اضطربت من شدة ابتهاجه بما سمع .
وكان معظم الخمسة الملايين من الأفدنة التي يملكها غابات
لبدائية غير مزروعة ، ولم يسبق أن قام أحد بمسحها ، فهي ليست
سوى أراض من أراضى الهنود ؛ فان شاء صاحبها أن يبيعها مزارع
وجب عليه أن يخططها أولاً ويرسم لها حدودها ويحدد معالمها . وعلى
هذا نراه اتخذ منذ أوائل شهر مارس العدة لإرسال جماعة من
المساحين ليقوموا بمسحها .

وكان من بين هؤلاء جورج فيرفاكس أخو آن الذي يكبر
جورج واشنجتون بثمانى سنين ، ومنهم مساح آخر من ذوى الخبرة
والتجارب ، ثم جورج نفسه . وقال اللورد : ذلك إذا رضى جورج
بالذهاب معهما .

إذا رضى بالذهاب معهما ! هو ؟ ان هذه هي الفرصة التي
كان يترقبها ليرى هذه الأراضي الجديدة ، ويقوم بمسحها ثم ينتقى
منها لنفسه قطعة طيبة يشتريها عندما يدخر المال الكافى . انه لا يكاد
يصبر حتى يبدأ العمل .

وعزم أن يكتب مذكرات يومية عن كل شيء يراه . وكانت
عنده كراسة جديدة تكاد تكون بيضاء كلها ، إذ لم يخط في صفحاتها

الأولى سوى بضع مقطوعات شعرية غزلية حاول أن ينظمها ويشبب فيها بحبيته السابقة « لولاند بيوتى » وبأثنتين غيرها من الفتيات القاسيات القلوب . ولكنه لم يعد يحفل بهن الآن . . فقد اندمل قلبه الجريح — ذلك القلب الفتى الذى لم يتعد صاحبه الخامسة عشرة بعد . هذا إلى أن لديه الآن أموراً أخرى تشغل باله ويعنى بالتفكير فيها وبكتابتها — وأهمها رحلته الثانية عبر الجبال ، وهى أول رحلة يقوم بها لأعمال تختص بالمساحة ، وتعد أول مغامرة له فى مجاهل البرية .

يوميات جورج

منذ يوم الجمعة الحادى عشر من شهر مارس سنة ١٧٤٨ شرع جورج يدون مذكراته كل يوم . . ففى صباح هذا اليوم قام مع جورج فيرفاكس على جواديهما وبدأ رحلتهما . وكانت حقول التبغ الواسعة، وبساتين الكريز الزاهرة تتجلى لهما على كل جانب فى بداية الرحلة . وكالما سارا غرباً أخذت المزارع تقل شيئاً فشيئاً حتى اختفت فى ثنايا الغابات الكثيفة المترامية الأطراف .

وما أن بزغت شمس اليوم التالى حتى كانا قد قطعا أربعين ميلاً ، ثم صادفا فى طريقهما المستر جين ، كبير المساحين ، فساروا جميعاً يتسلقون الجبال طيلة هذا اليوم كله حتى بلغوا ذروة جبال البلور يدج بعد الظهر ومن تحتهم وادى شانندوا الجميل منبسطاً أمامهم ، ورأوا النهر ينثى فيه أمامهم واضحاً جلياً . وعند الأفق ، على مدى البصر ، رأوا جبال الألبان تقوم عالية دكاء . على أن جورج لم يكن معنياً وقتئذ بالتأمل فى المناظر الطبيعية ؛ فقد كان متعباً جائعاً . ولم يكن يشغله سوى المسافة الباقية لهم ليصلوا إلى النهر وإلى الفندق القريب .

وفى اليوم التالى ، وهم يسرون صوب منبع النهر متجهين إلى كوخ الصيد الذى يملكه اللورد فيرفاكس ، أعجب جورج كل الإعجاب بما وقع عليه بصره من أشجار الاسفندان ، ومن خصب الأراضى الجديدة التى أصلاحها المستوطنون الجدد ، وزرعوها قمحاً وتبغاً . وكان يوم الثلاثاء أول يوم قضوه فى مسح الأراضى ؛ ففيه

وصلوا إلى ما يسمونه « المارشز » وظلوا يعملون بجهد اليوم كله .
ولو لم يكن جورج متعباً لما فكر في أن ينام طيلة هذه الليلة التي
هي أول ليلة يقضيها في كوخ رائد من رواد الغابات .

ولما لم يكن خبيراً بالأحوال في الغابات ، مثل زميليه ، فقد خلع
ملابسه كما اعتاد ، وقال في يومياته « ومضيت إلى ما يسمونه فراشاً ،
فدهشت إذ لم أجده سوى قليل من القش المتلبد العارى ؛ لا ملاءة
عليه ولا شيء سوى ملحفة بالية تحمل في طياتها ضعف وزنها من
القمل والبراغيث » . وعندئذ قفز جورج من مكانه وسارع
إلى ارتداء ملابسه . ثم دأب منذ ذلك الحين على أن ينام مع زميليه
على الأرض أمام الموقد متدثراً بملحفته .

وفي يوم الجمعة ، كان قد مضى عليهم أسبوع كامل ، ووصلوا
إلى أحد روافد نهر البوتوماك ، فوجدوه زاخراً بالثلوج الدائبة
المنحدرة من سفوح الجبال ، فاضطروا عندئذ أن يدفعوا بنحيولهم
وسط النهر حتى تعبره عائمة إلى بر مارييلاند . ومنها اتجهوا صوب
مركز تجارى للهنود « يسرون على أسوأ طريق وطأته أقدام إنسان
أو حيوان » ، تعوقهم الأشجار الساقطة التي تراكت عليها الأغصان ،
والشجيرات المبللة بمياه الأمطار ، فقد ظلت السماء تهيم ثلاثة
أيام متوالية .

ثم صفت السماء في الساعة الثانية من يوم الأربعاء ، فرأوا
جمعاً من الهنود عائدین من الحرب ، ويبلغون الثلاثين رجلاً ،
ولكن لم يكن معهم سوى فروة رأس واحدة . وبعد أن شرب

الهنود شيئاً من الخمر - « الروم » - ثملوا واندفعوا يرقصون رقصة الحرب عندهم . . وكتب جورج يقول : « وطريقتهم في الرقص أنهم يُعدّون حلقة كبيرة ويشعلون وسطها ناراً متأججة ثم يجلسون حولها ، ويأخذ أمهر راقص فيهم في الرقص ، يتبعه سائر الهنود ، فيقفز ويجرى ، ويثب حول الحلقة بشكل يدعو إلى الضحك . . ولم يكن لديهم من الآلات الموسيقية سوى جرة من جرار الماء يُسط عليها جلد غزال ، ويقطّية ربطت فيها قطعة من ذيل فرس ، وفي داخلها قليل من الرصاص ، حتى إذا أجيأت أحدث الرصاص أصواتاً . فكان أحدهم يحيل اليقطّية ، والآخر يطبل ، والباقون يرقصون » . وهكذا قضوا يوم الخميس كله في مشاهدة هؤلاء الهنود الخمر المدهشين ، وفي التحدث إليهم .

وقضوا الأسبوعين التاليين يعمّاون باستمرار في مسح الأراضي . وكانوا ينجزون خمسمائة فدان أو أكثر في اليوم ، ثم يقضون الليل في خيمتهم ، ويعيشون على الديكة الرومية البرية التي يصطادونها ، ثم يشوونها على نار مكشوفة . وذات ليلة اشتعلت النار في القش الذي تحتهم وهم نيام ، وحدث مرتين أو أكثر ، أن اقتلعت الريح الهوجاء خيمتهم . وفي يوم الأحد العاشر من أبريل أخذوا أهبتهم للرحيل فقوضوا الخيمة وحزموها وركبوا جيادهم ميممين شطر جبال البلو ريدج . وكتب جورج يقول « وفي يوم الأربعاء الثالث عشر من أبريل سنة ١٧٤٨ وصل المستر فيرفاكس إلى منزله سالماً ، وكذلك وصلت إلى إخوتي . وكان هذا ختام يومياتي »

لورانس يغادر ماونت فرنون

في أصيل يوم قاطظ من أيام الصيف، اجتمع أفراد الأسرة في ركن ظليل في ماونت فرنون ليلعبوا دستاً من الورق . ولما جاء دور لورانس واشنجطن لتوزيع الورق على اللاعبين خاطه بعضه ببعض ، ووزع ورقة على كل من أوستن وجورج ، وجورج فيرفاكس ، ثم ألقى بحزمة الورق على المائدة . فقد رأى نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأنه يشعر أن حالته الصحية لا تساعد على الاستمرار في اللعب .

فتضايق جورج ونخاب أمله ، فقد أحس أنه أخذ يتعلم اللعبة بسرعة ، وكان الحظ حليفه في الغالب الأغلب ، لا في اللعب وحده بل في عمله أيضاً بوصفه مساح . أراض .

وانهمك جورج طيلة فصل الربيع في الاشتراك في مسبح مدينة الاسكندرية الجديدة وتخطيطها . وهي وتقع على بعد ثمانية أميال من ماونت فرنون على نهر البوتوماك . وفي هذا اليوم من شهر يولية أنجز جورج ما عليه من العمل ، وتمت جميع الاستعدادات لبيع القطع في مزاد علني ، واعتزم لورانس أن يحضر هذا المزاد في اليوم التالي .

ولما نهض لورانس من المائدة كان وجهه ممتقع اللون . ولم يكن أحد يدري مدى شدة المرض الذي يشكو منه . فمع أن سنه لم تزد على الحادية والثلاثين لم يكن أمامه سوى ثلاث سنين أخرى من حياته .

وفي هذه السنوات الثلاث كان جورج يتقدم باستمرار إلى
الأمم . ففي الربيع اعتمده أولو الأمر مساحاً عاماً ، وعاد ليقوم
ببعض عمليات مسح للورد فيرفاكس في ما وراء جبال
البلوريديج . ولما كان يحصل على أجر طيب من عمله فقد حرص
كل الحرص على أن يدخر ما يكسبه من الأموال كي يشتري بها
ما يستطيع شراءه من الأراضي . ففي الربيع ، وقد بلغ الثامنة عشرة ،
حصار عنده من المال ما يكفي لشراء أول مزرعة له ، وكانت
مساحتها ألف فدان ؛ ثم اشترى مزرعة أخرى غيرها مساحتها
أربعمائة وستة وخمسون فداناً ، وذلك قبيل عيد الميلاد عندما ذهب
لزيارة أمه والأولاد في رفرى فارم ، ولزيارة بيتي في فردريكسبورج ؛
وكانت بيتي قد تزوجت من المستر لويس .

أما في ماونت فرنون فقد أخذت صحة لورانس تسوء يوماً
بعد يوم . وخطر له أن يقوم برحلة إلى جزائر الهند الغربية عنه
يستعيد فيها صحته ويسترد عافيته ؛ على أن « آن » لم تستطع أن تذهب
معه في هذه الرحلة من أجل طفلتها الجديدة . فهل يرضى جورج
أن يكف ولو لبضعة شهور عن عمله كمساح ليذهب معه يا ترى ؟
إنه لاشك يود أن يقوم بأي عمل في سبيل أن يرى أخاه يسترد صحته
فسافرا معاً من نهر البوتوماك . وبعد أن قضيا شهراً في البحر
تنزلا من جزيرة باربادوس المدارية الخضراء . وكان جورج يدون
مذكرات عن كل شيء يشاهده ... فجزيرة باربادوس هذه غنية
يقصب السكر وبالأناناس ، وعلى الرغم من الشمس ، ومن نسيم البحر

فان صحة لورانس لم تستفد شيئاً منها مع الأسف . ذلك إلى أن جورج أصيب بالجدرى ، فعاد من هذه الرحلة البحرية الوحيدة في حياته مشوه الوجه إلى الأبد من آثار هذا المرض .
ولما عاد لورانس إلى بيته أدرك أن أجله لن يطول ، فتوفى في صيف سنة ١٧٥٢ . وكان قد كتب في وصيته أنه قد خصص قسماً كبيراً من أملاكه لأخيه جورج ، كما خصه بمنزله الجميل في مزرعة ماونت فرنون .

حرب الفرنسيين والهنود

وقف الصباح جورج واشنجطن الشاب أمام الحاكم في قصره في مدينة وليامزبرج . وكان جورج قد طالت قامته حتى أربت على الستة أقدام ، وكان مر تدياً بذلة عسكرية زرقاء من طراز مايلبسه جنود فرجينيا .

وكان مع الحاكم خطاب ، فوقعه وطواه ، وسأل جورج وهو يسلمه هذا الخطاب : متى تبدأ رحلتك ؟

فأجاب جورج : « اليوم يا سيدي » . وما أسرع ما امتطى جواده وانطلق به تاركاً وليامزبرج .

كان ذلك في صباح الثلاثين من أكتوبر سنة ١٧٥٣ . وكان جورج في الحادية والعشرين من عمره فخوراً بأن يثق به الحاكم ويعهد إليه بمثل هذه المهمة الخطيرة التي سعى إليها بنفسه ونال شرف القيام بها . وعقد عزمه على أن ينجح فيها على الرغم من أنه لم يكن أمامه دليل يهديه السبيل إلى الشمال الغربي المخوف بالمكماره والأخطار سوى أثر غامض محيل .

فقد كان عليه أن يسلم الخطاب الذي معه إلى قائد حصن فرنسي في مكان ما عند نهر الأوهايو . ولم يكن الحاكم نفسه يدرى أين هذا المكان على وجه التحديد . وكل ما يعلمه أن الفرنسيين هبطوا من الشمال ونزلوا في أراضٍ يملكها الانجليز . وهي الأراضى التي سبق أن منحتها الملك شركة الأوهايو . وكان لذلك دلالة خاصة



جورج واشنبطن (إلى اليمين) وکریستوفر جست (الدلیل)
يعبران نهر الالیجانی

في نظر جورج . فقد كان أخوه لورانس رئيس هذه الشركة عندما منحت تلك الأراضي ، وكان في عزمها قبل وفاة لورانس أن تقيم فيها حصناً يحميها غارات الفرنسيين ؛ ولكنها لم تفعل ، فقد سبقها الفرنسيون واستقروا في تلك الأراضي فعلاً .

وكان الخطاب الذي يحمله جورج ليسلمه إلى الحاكم الفرنسي ، خطاباً حازماً رغم صياغته في قالب رقيق . ففيه يطلب من الحاكم الفرنسي أن يرحل عن هذه الأراضي . وفضلاً عن تسليم هذه الرسالة ، كان على جورج أن يعرف عدد الجنود الذين عند الحاكم ، وعدد ما بناه الفرنسيون من حصون ، وعدد قبائل الهنود الحمر الموالين لهم .

وكان ، وهو على صهوة جواده ، يفكر فيما يلزمه من الأسلحة والذخيرة والخيام و «البوصلات» ، وعلف الخيل ، وصنوف الهدايا التي تقدم إلى الهنود الحمر ، وفيما لا بد له من الأدلاء والمترجمين . ولما وصل فردريكسبورج لبث فيها برهة ليزور أمه ويودعها ؛ ذلك إلى أنه وجد في المدينة رجلاً زعم أنه يحسن الكلام باللغة الفرنسية ، فأستأجره .

ومن غير أن يضيع وقتاً ما أسرع إلى جبال البلوريديج ، وواصل السير هو والمترجم عشرة أيام حتى بلغا أبعد نقطة كان جورج قد وصل إليها من قبل في الغابات ، فشعر أن لا بد له بعدها من دليل يرشده إلى الطريق التي ينبغي له أن يسلكها . فصادف رجلاً في محلة صغيرة تبدو عليه مخايل النباهة والذكاء اسمه كريستوفر

جست ؛ فاستأجره ؛ كما استأجر كذلك أربعة من رجال الغابات ،
اثنان منهم يعرفان لغات الهنود ؛ وقاموا جميعاً متجهين نحو قرية
هاف كنج عند نهر الأوهايو . وهاف كنج هذا ، زعيم هندي مشهور .
وبينا هم في الطريق علموا أن ثلاثاً من قبائل الهنود انضمت إلى
الفرنسيين . فما عسى أن يكون موقف هاف كنج هذا ؟ أصدیق
هو أم عدو يا ترى ؟

وقبل أن تتضح لهم جلية الأمر بلغوا موضعاً لا يبعد عن القرية
الهندية ، وحيث يلتقى عنده رافدان يكونان نهر الأوهايو . فعكف
جورج يفحص المكان بعناية وحرص (وهو الذي ستنشأ فيه فيما
بعد مدينة بتسبرج) ، الذي كانت تعزم شركة الأوهايو أن تقيم
فيها حصنها .

ولوحظ أن هاف كنج كان غاضباً على الفرنسيين كل الغضب ؛
فهذه الأراضي أراضيه هو ، كما يقول ، على حين أن الفرنسيين قالوا
له إنها أرضهم . . . وكان هذا كذباً واضحاً ، فهذه الأرض لم تكن
لأحد من البيض قط . . . إنها أرض هندية . وكان جورج يصغى
باهتمام إلى ما يسمع . وكذلك كان حريصاً كل الحرص . وانتظر
حتى وافق هاف كنج وثلاثة من رجاله الأشداء على أن يصحبوه
إلى حصن الفرنسيين .

وظل جورج ومن معه يسرون خلف الهنود الحمر أربعة أيام
متوالية ، إلى أن عثروا بمتجر رُفع عليه العلم الفرنسي الأبيض
الجميل المطرز برسوم السوسن المذهب . وكان يحرسه رجل هجين



جورج واشنجطن ، وزميلان له
عندما ذهبوا إلى الحاكم الفرنسي في أراضي وهايو
سنة ١٧٥٣ ليسلما له رسالة خاصة
لقد قطع واشنجطن ستمائة ميل في أراض مليئة بالغابات والأنهار

بين هندی وفرنسی ، قال لهم إن الحصن يقع على بعد خمسين ميلا .
وأردف قوله هذا بأن الانجليزى على خطأ مبين ، ان كان يظن أن
الفرنسيين سيرحلون عن هذه الأراضى . لا ! فالأرض أرضهم ،
فجميع الأوهايو وأراضى وادى المسيسي كلها أرضهم ، فقد استكشفها
« لاسال » الرائد الفرنسى منذ عشر سنين وهذا هو عين ما سيسمعه
من الحاكم الفرنسى رئيسه . !

استقبل الحاكم الفرنسى الصباغ واشنجطن استقبالا طيباً ،
وتسلم منه باحترام الخطاب الرقيق الذى حمله إليه من الحاكم
الانجليزى ، والذى يطلب منه فيه أن يرحل عن هذه البلاد . ثم كتب
رده بأسلوب رقيق كذلك ، يقول له فيه لا ! لن أرحل .

ثم تسلم واشنجطن هذا الخطاب ليعود به إلى الحاكم الانجليزى .
وكانت عودته كلها كفاحاً ضد البرد والزمهرير . فقد كانت فى
شهر ديسمبر ، والأرض مكسوة بالثلوج ، والحيل مجهدة منهوكة
القوى ؛ وكى يصلوا بسرعة إلى غايتهم اقترح واشنجطن أن يربط
هو وزميله جست ما يحتاجان إليه على ظهريهما ويسيرا فى طريقهما ؛
فواجهما الموت مرتين وهما يحاولان عبور نهر يكاد يكون جَمَدا كله .
فسقط جورج من الرمث وكاد أن يغرق . هذا ، وقد أطلق عليهما
أحد الأدلاء الهنود الرصاص ، ولكنهما ظلا يسيران قُدماً على الرغم
من ذلك كله .

وفى السادس عشر من يناير بلغ واشنجطن مدينة وليامزبرج ،
فدهش الحاكم كل الدهشة أن يرى واشنجطن ماثلاً أمامه ؛ ولكنه

اغتبط بوصوله كل الاغتباط ، فقد أصبح في يده الآن تقرير عن أراضي الأوهايو ، ورسم للحصن الفرنسي ، وخطاب من الحاكم الفرنسي كذلك .

أما الرحلة الثانية التي قام بها واشنجطن إلى بلاد الأوهايو في الربيع فلم تكن موفقة التوفيق الذي صادفه في رحلته الأولى . فقد قام هذه المرة ، ومعه ، بأمر الحاكم العام ، عدد من الجنود ، وليس خطاب فحسب . وذلك أن الفرجينيين كانوا قد اعتزموا في الشهور السابقة على ذلك أن يبنوا حصناً لهم في تلك المنطقة عند قرية هاف كنج . ولكن قبل أن يرسلوا قواعد كتل الخشب الجديدة ليضعوها في مواضعها كان الفرنسيون قد استولوا على موقع الحصن ، ولم يبق أمام الانجليز سوى أن يعملوا على طردهم منه بالقوة .

فعند منتصف الطريق في « جريت ميدو » أقام جورج معسكره في بقعة تحيط بها التلال والربى ، وأنشأ بجانب المعسكر حصناً مؤقتاً . ولكن اختيار هذا المرعى المكشوف لإقامة المعسكر فيه ، كان اختياراً سيئاً أخرق . فجورج لم يكن قد تدرب التدريب العسكرى ، وعليه أن يتعلم الآن من أخطائه .

و ذات ليلة مطيرة في شهر مايو حضر إلى المعسكر عدد هندی يحمل رسالة من هاف كنج ، يقول فيها إن الفرنسيين على مقربة منهم ، فقد رأى هاف كنج آثار أقدامهم ، ويقدر عددهم بثلاثين رجلاً أو يزيدون .

فخطر ببال واشنجطن أنهم لا بد أن يكونوا جواسيس ، وأن

الفرنسيين قد اعتزموا أن يأخذوهم على غرة . فأسرع إلى العمل ولم يضيع لحظة واحدة . فاختار أربعين رجلاً من رجاله ، وساروا الليل كله يقودهم الهندي ، فجعلوا يشقون الغابات المغمورة بالمياه . وبعد قليل انضم إليهم هاف كنج نفسه . وعند الفجر وقف الهندي وأشار إلى حفرة في الأرض وقال « الفرنسيون هنا » .

وفي الحال أصدر واشنطن أمره بإطلاق النار . ف لأول مرة في حياته سمع الرصاص يتر وهو مار بجانب أذنيه ، لما هب الفرنسيون إلى بنادقهم . ولكن الفرصة قد ضاعت عليهم ، إذ قتل قائدهم وعشرة من جنوده وأسر العشرون الباقون ، مما ملأ واشنطن غبطة وسروراً .

كانت تلك أول معركة خاضها في حياته ، وكان فوزه فيها باهراً ؛ على أن سروره بهذا الفوز لم يلبث طويلاً . ففي الثالث من شهر يونية جاء خمسمائة فرنسي ثائرين ، ومعهم كثير من الجنود الحمر كي يهاجموا واشنطن ومن معه ، ويأخذوا بثأر زملائهم القتلى ، وقالوا ان الرجال الذين قتلوا أو أسروا إنما كانوا يحملون رسالة إلى الحاكم الانجليزى .

وكان اليوم الذى حدثت فيه هذه المعركة الثانية يوماً عبوساً مطيراً ، وكان عدد الرجال الذين مع واشنطن في حصنه المسكين غير المحمى ، في جريت ميدوز ، أقل من نصف عدد الفرنسيين الذين يهاجمونه ؛ وزيادة على ذلك فقد خذله هاف كنج والهنود الذين معه . فهاف كنج هذا لم يكن راغباً في أن يخاطر ويقع أسيراً في

أيدي البيض ، فجرى إلى التلال والربى والتجأ إليها . فحسبه أن يشاهد المعركة ويرى ما تسفر عنه .

وصمد رجال واشنجطن ما استطاعوا أن يصمدوا على الرغم من كل ما عانوه، وظلوا محتفظين بشجاعتهم ، ولكنهم اضطروا آخر الأمر إلى الاستسلام عند الغروب . فعلى ضوء شمع خفاقة وسط الريح قرأ المترجم الفرنسى ورقة عرضها الفرنسيون على جورج واشنجطن كي يوقعها، وهى تنص على أن يعيد واشنجطن الأسرى الفرنسيين ، ويتعهد ألا يعود إلى هذه الأراضى قبل مضى سنة أخرى ، فوقعها مضطراً فى وجوم واكتئاب . وبعد توقيعها سمح له فى اليوم التالى بمغادرة الحصن هو وجنوده محتفظين بشرفهم العسكرى . فرجع إلى فرجينيا ، وقد أفسدت عليه هذه الهزيمة صفو سروره بما سبق أن حازه من انتصار .

وزيادة على ما كان فيه من ضيق وابتئاس نزل به مرض اضطره إلى ملازمة الفراش فى ماونت فرنون عدة أسابيع .

وفى خلال تلك المدة وصلت إلى إنجلترا عدة صور من تلك الوثيقة التى وقعها ، وعندئذ رأى ملك الانجليز أن الوقت حان لأن يرسل حملة من الجند إلى أمريكا لحسم ذلك النزاع خشية أن يتطور إلى حرب ضد الفرنسيين وحلفائهم من الهنود .

ففى الصيف التالى جاء الجنرال برادوك من إنجلترا ليتولى قيادة الجند، وعمل واشنجطن تحت قيادته ، ولكنه كلف مأمورية أخرى تهدف إلى الاستيلاء على الحصن القائم عند نهر الأوهايو

وإذ كان مريضاً ولا يستطيع أن يمتطي جواده اضطر أن يركب إحدى العربات التي تنقل العتاد الحربى ويبقى فيها راقداً على ظهره ، فظلت تهزه هزاً عنيفاً ، وظل هو يتحسر على الوقت الذى أضاعه الجنرال الانجليزى .

فقد كان الجنرال برادوك قائداً مسناً كثير الخبرة والحكمة والدراية ، ولكن جنوده المدربين لم تكن لهم خبرة إلا بالمواقع التى حدثت فى أوروبا ، ولم يحدث أن شاهدوا معركة من تلك المعارك التى تحدث فى البرية . فلم يسمعوا قط عن صرخات الحروب الهندية الوحشية ، ولم يعرفوا قط كيف أن الهنـدى الختال يظال يزحف ويزحف حتى ينقض على غريمه .

هذا، وقد تلقى الانجليز أول درس مرير لهم فى شهر يوليه ، فبينما هم يسرون فى طريق ضيقة وسط الغابات مرتدين حللهم القرمزية الجميلة ، وغير بعيد عن الحصن ، إذا بصرخة وحشية تدوى فى الجو وتصلك أسماعهم ، وإذا بالرصاص ينهال عليهم من كل صوب من غير أن يروا أمامهم عدواً يناجزهم ويناجزونه . فاستولى عليهم الفرع وركبهم من الدعر ما ركبهم وأشاع الاضطراب فى صفوفهم ؛ واندفع الجنرال برادوك وسط هذا الحشد المضطرب الجائش شاهراً سيفه ، ويصيح فى جنوده المدعورين ، محاولاً ضبطهم وإعادة رباطة جأشهم إلى نفوسهم . ومع أن واشنجطن كان لا يزال يعانى الكثير من وعكة الحمى ، فإنه اندفع بجواده وسط

الخطر، والرصاص يدوى حوله ، ويخترق أكمام قميصه ، ويقتل حصانه، فيسارع إلى ركوب غيره ؛ وظل يتجه إلى هذه الناحية ، ثم إلى تلك حتى استطاع أن يلم شعث الجيش ويضم صفوفه .

ومع ذلك كله فقد خسروا الموقعة ، وجرح القائد برادوك نفسه ، واشترك واشنجطن في نقله من ساحة القتال على محفة اصطنعها من منطقته القرمزية . وبعد عشرة أيام توفي متأثراً بجراحاته، فدفنوه في الطريق حتى يظل تحت آثار العربات العائدة بالعتاد والأمتعة بعيداً عن عيون الهنود الحمر الذين يتصيدون فروات الرعوس .

وبعد مضي سنتين قام جورج واشنجطن سنة ١٧٥٨ برحلة أخيرة مع الجنود الانجليز إلى حصن أوهايو . وما أن اقتربوا من الحصن حتى بادر الفرنسيون إلى إشعال النار فيه ثم ارتحلوا عنه . وأخيراً رأى واشنجطن ذلك الحصن يذهب طعمة للنيران — ذلك الحصن الخشبي القائم في البرية، والذي به بدأت حرب الفرنسيين والهنود .

وقد أدى ذلك إلى أن يخسر الفرنسيون جميع ما في أيديهم من أراض وحصون في شمال أمريكا في نهاية الحرب . ومع أن جورج لم يشترك فيها فقد عمل لنفسه اسماً طيباً . ففي اجتماع للمجلس في وليامزبرج نوّه الرئيس به وأشاد بعمله ، قال :

أود أن أهنيء بطلنا الفرچيني على شجاعته وحسن سلوكه من

بداية الأعمال التي قام بها الفرنسيون ومن حالفهم من الهنود إلى وقت الاستيلاء على الحصن .

وحاول واشنطن أن يرد على هذه التحية ويجيب عما سمع ، فارتج عليه وحُصر . وعندئذ قال رئيس المجلس كي يعفيه من الكلام : إجلس ياسيد واشنطن ، فتواضعك يعادل شجاعتك قيمة ومقداراً . . وهذا في نفسه يفوق قوة أية لغة في نظري .

جورج ومارثا

ذات يوم ناضر من أيام الربيع ، كانت عربية من عربات السفر تجرى فى الطريق العام وسط الحضرة الناضرة ، تجرها جياذ مطهمة فارهة ، ويسوقها حوى يرتدى بذلة مزركشة ، فعرجت نحو الباب ثم اندفعت تجرى فى طريق العربات حتى وقفت أمام ماونت فرنون . فأسرع السائق إلى النزول وفتح باب العربية فبرز منها جورج واشنطن .

وتلفت خلفه ، ورفع ابنة صغيرة ، عليها قبعة مستديرة ترفرف عليها ريشة من ريش النعام . ثم لبث هنيهة حتى نزل طفل صغير من العربية ، فقدم ذراعه لخير من فى العربية — وكانت امرأته . فنزلت منها ، وكانت لابسة حذاء مستدقاً ، وازارا أسمر اللون تسمع له حفيفاً ، وعلى رأسها قبعة من « التفتاح » . ولما وقفت بجانب زوجها بدت نحيلة قصيرة القامة ، لا تكاد تبلغ مستوى كتفيه ؛ ثم ألقت نظرة على المنزل فبدت على ملامحها السرور وقالت : هذا إذن ماونت فرنون ؟

وهكذا استقروا جميعاً فى المنزل — جورج واشنطن وأسرته الجديدة : باتسى ، وجاكى ، وأمهاتى التى كانت قبل السادس من يناير سنة ١٧٥٩ السيدة مارثا كوستيس أغنى أرملة شابة فى المستعمرة كلها ، ثم صارت مارثا واشنطن . وبعد حفلة العرس — وكانت حفلة شائعة روعيت فيها كل الأساليب الحديثة — مضيا معاً إلى

مدينة وليامز برج لقضاء بقية الشتاء فاستمتعا بكل ضروب التسلية واللهو التي في هذه المدينة الصغيرة المرحية — عاصمة المستعمرة .

أما الآن ، وقد حل الربيع فقد رجعا إلى بيتهما ؛ وكان الباب مفتوحاً لهما على مصراعيه ، واصطف في مدخل الدار جمع من الخدم لاستقبال سيدهم الجديدة ولترحيب بها . وما لبثت مارثا أن مرت بحجرات البيت وأبدت سرورها بما شاهدت ، وأظهرت رغبتها في إدخال تعديلات على المنزل في بعض نواحيه .

وكان من رأى جورج أن رف الموقد الذي في البهو الغربي يبدو أجمل مع المنظر الطبيعي وتمثال يوليوس قيصر النصفى الذي أوصى بعمله في بلاد الانجليز .

وكانت حجرات النوم التي في الدور الثاني لا تزال تفوح منها رائحة ورق الحائط الذي ألصق على جدرانها حديثاً ؛ كما كانت تفوح منها كذلك رائحة الخشب المطلي حديثاً أيضاً ؛ فان سُقِفَ المنزل قد أزيلت ، وأضيف إليه نصف دور جديد . قال جورج لمارثا ، ان الذي أشرف على تجديد البيت هو الكولونيل جورج فيرفاكس الذي يقطن على مقربة من ماونت فرنون ؛ فقد كان جورج غائباً عن البلدة . ثم أطلا من النوافذ الشرقية على نهر البوتوماك فرأيا رجلا في مركب صيد يجمع « المحار » ثم هبطا إلى الدور الأول لتناول الغداء . وبعد الفراغ منه طلب جاكى من زوج أمه الرائع أن يشرح له الطريقة التي يستطيع بها أن يكسر الجوز بأصابعه . ونحارج البيت توجد مرافق شتى مثل المطبخ ، ومكان لغزل

الصوف ، وحجرات الخدم . فقضت مارثا ليلتها هذه في السرير العالى ذى الأربعة الأعمدة وهى مغتبطة راضية لا تشعر بشيء من وحشة الغرفة . وتبدت في اليوم التالى ، وقد أخذت معها أشغال الإبرة وفتحت حقائبها ، كأنها كانت تعيش في ماونت فرنون طيلة حياتها .

أخذ واشنجطن يتعلم الزراعة . فاستقبل صيفاً مليئاً بالأعمال . فهو يحب الأرض وزراعتها ، ويحب رائجتها ، ويطيب له ملمسها ويعجبه أن يرى أنخاديد الأرض السوداء التى يحدثها المحراث . وشم صفوف مستقيمة من شجيرات التبغ الصغار وأوراق طويلة سمراء تجفف في الحظائر الخاصة بذلك ، وأكوام من الدريس ، وحقول واسعة حافلة بالقمح حلت محل الأراضي المكسوة بالغابات والأحراج . وكان واشنجطن يعمل دائماً على أن يؤدي كل ما يقوم به من أعمال خير أداء وأحسنه ، ولم يشذ عن ذلك عمله في الزراعة . فاجتهد أن يعرف خير المزروعات وأنسبها بالأرض ، وخير طريقة لإنمائها نمواً حسناً . وكان يدون حساباته بدقة ، ويحتفظ بمذكرات صحيحة عن كل شيء يعمل به ، فهو ليس من أولئك الناس الذين يعملون شيئاً ما في لهو وجة وبدون إحكام .

فبينما مارثا مشغولة كل مساء برفو الجوارب ، أو بأشغال التريكو كان جورج يجلس إلى مكتبه يدون يومياته على ضوء الشمع ، فيذكر مثلاً كيف قضى يومه ، وكيف كان الجو غائماً أو صحوماً . عاد جورج ذات مساء من مزرعة جديدة ، فوجد مارثا تشكو

من مرض الحصبة . وبعد أيام ذكر في يومياته أن سالى فيرفاكس جاءت تعودها . ولما كان المساء بارداً ، والرياح شديدة كلف السائق أن يُعد العربّة ليوصل سالى إلى منزلها ، ولكن العربّة لم تعد صباح الأحد في الوقت الملائم ، فتعطلت عن الذهاب إلى الكنيسة في الاسكندرية ، على أن جورج ركب ثانياً يوم إلى تلك المدينة لاستئجار بستانى جديد وشراء « حمل » من الزبد .

ومضى ذات ليلة إلى مرقص في الاسكندرية ، وكانت الموسيقى أهم تسلية فيه . وكذلك ذهب مرة لصيد البط ، وقنص الثعالب ، وصيد السمك المعروف بالرنجة في موسم الصيد . وحاول مرة مع « بيير » الحداد أن يصنع محراثاً جديداً بحسب تصميم وضعه هو نفسه . وحدث أن ولدت كلبّة ثمانية جراء في المزرعة فسمى كل جرو منها اسماً وطلاها بالدهن عندما أصابها الجرب .

وأرسل إلى المعصرة تفاحاً ، وإلى « المنشار » خشباً ، وصادف مرة في طريقه زنجياً مريضاً فنقله إلى البيت ليعنى به العناية الكافية ، وزار أخته وأمه في فردريكسبورج ، وساعد إخوته سام ، وجاك ، وتشارلى ، وغرس أشجار الصنوبر في الربيع ، وطعم أشجار الخوخ والكريز ، وجرب آلة لزرع الشوفان والشعير ، وتغذى ومارثا عند جورج وسالى فيرفاكس ، ثم دعاهما فيما بعد إلى تناول الغداء في ماونت فرنون .

وهكذا مرت الأيام والفصول والسنوات في سعادة وهناءة حتى بلغت خمسة عشر عاماً ، ثم تلتها سنون أخرى كلها متاعب واضطرابات جاءت من الخارج .

الرعايا المخلصون وجورج الثالث

ترجع قصة هذه المتاعب ، وتلك الاضطرابات ، إلى ليلة من ليالى شهر نوفمبر سنة ١٧٦٠ ، وهى السنة التى تلت عقد زواج واشنطن على مارثا ؛ وكانت مدينة ويليامزبرج مريحة كعادتها لما فيها من فرق التمثيل ومجالس لعب الورق ، والمراقص الكثيرة ، على أنها كانت تلك الليلة من نوفمبر أشد مرحاً وأكثر سروراً . فقد وصلت أخبارها بأن ملكاً جديداً قد تبوأ عرش إنجلترا ، هو الملك جورج الثالث ؛ فما إن وصلت هذه الأخبار إلى مسامع مزارعى فرجينيا المخاضين حتى هتفوا بحياته وجعلوا يرقصون ويتغنون فى « مطعم رالى » ويصيحون عاش الملك !

وكذلك هتف الحاكم الملكى للمستعمرة وضيوفه المخلصون الذين كانوا يتغدون معه فى القصر : عاش الملك !

وشرب نخب الملك الجديد جورج الثالث الرعايا المخلصون له فى كل بيت من البيوت القائمة على حافى الشارع العريض . وكان جورج واشنطن فى ذلك الوقت فى مدينة ويليامزبرج مع زوجته مارثا وطفليها ليحضر جلسات المجلس التشريعى إذ أنه انتخب هذه السنة لأول مرة عضواً فى ذلك المجلس .

وكان المؤلف أن ملك الانجليز هو الذى يعين حاكم فرجينيا ؛ أما أعضاء المجلس فينتخبهم الشعب نفسه ؛ وكانوا هم الذين يقومون

بوضع القوانين التي تحكم بها المستعمرة . هكذا كانت الأمور تجري على هذا المنوال .

ولكن الملك الجديد، جورج الثالث، كانت له آراء جديدة غير هذه . فلم تكد تمضى عليه مدة طويلة حتى صارت ترد من إنجلترا قوانين جديدة غريبة لتطبق على أهالي المستعمرات في أمريكا . وظلت هذه القوانين تزيد في مضايقتهم وإحراجهم سنة بعد سنة ؛ وظل الأمر كذلك ومضايقتهم تزداد حتى صدر قانون جديد يعرف بقانون « الدمغة » . فذات يوم في شهر مايو، قامت في المجلس مناقشة حادة بشأن هذا القانون . وكان جورج واشنطن جالساً في مقعده كالمتعاد عندما دعا رئيس المجلس عضواً جديداً اسمه « باتريك هنري » للكلام وإبداء الرأي .

فرأى جورج خلف المائدة الوسطى المغطاة بقماش من الجوخ الأخضر الزاهي، رجلاً نحيل الجسم، طويل القامة، على رأسه شعر مستعار، رآه يقف على قدميه في بطء ورزانة ويضع على عينيه منظاراً ثم يأخذ في إلقاء كلمته .

فقال باتريك هنري في صوت هادئ متزن :

«نحن أهالي هذه المستعمرة لسنا، بما لنا من حقوق، مُلزمين باطاعة قانون الدمغة، ولا ... ولا أى قانون آخر مثله لم يصدر بموافقة هذا المجلس» ثم اندفع يتكلم بسرعة وعلا صوته حتى سمع رناناً مؤثراً ... فلفت نظر الحكام من أمثال جورج الثالث الذين يدفعهم

حرصهم على الاستزادة من القوة والسلطان ، فيفقدون بذلك حياتهم . . . وكذلك فان جورج الثالث »

وعندئذ هب رجل كان جالساً بجانب جورج واشنجنطن ووقف على قدميه وصاح يا للخيانة ! ورد آخرون صيحته ، وكانوا متسرعين ومتهيجين مثله ونادوا خيانة ! خيانة !

أما واشنجنطن فكان أحزم منهم وأسد رأياً ، فترك للمتكلم الفرصة العادلة حتى أتم كلامه ، الذى اختتمه بتحذير بسيط بأن الأولى بجورج الثالث أن يتعظ بما حصل لهؤلاء الحكام . تم اقترح على الحاضرين أن يبعثوا إلى جلالة الملك ، بوصفهم رعايا مخلصين له ، خطاباً يحتجون فيه على قانون الدمغة هذا . فكان اقتراحاً معقولاً فى نظر الأعضاء ، إلا أن حاكم المدينة الملكى عدده منهم عملاً عدائياً . ففض المجلس وأوصد أبواب الكابيتول .

ولم يلبث قانون الدمغة هذا أن أحدث اضطراباً كبيراً فى جميع المستعمرات الأمريكية ، فاضطرت إنجلترا إلى سحبها ، ولكنها أصدرت قانوناً آخر غيره يلتزم مزارعى فرجينيا بدفع ضرائب شتى على كثير من الأشياء التى اعتادوا أن يشتروها من إنجلترا مقابلضة بتبغهم ، ففرضت ضريبة على الزجاج ، وأخرى على الألوان ، والأدهنة ، والأطباق ، ومواد البناء ، بل وعلى الشاى نفسه .

ولما كانت أبواب الكابيتول موصدة فى وجوه أعضاء مجلس المواطنين فقد استقر رأيهم على أن يجتمعوا فى مطعم رالى ليتداولوا الآراء فيما بينهم ، ويقفوا على ما ينبغى أن يعملوا . وعند افتتاح

الجلسة شوهده جورج واشنجطن ممسكاً ورقة في يده، ثم وقف وقال :
« بيدى خطاب من فيلادلفيا يقول إن أهاليها اتفقوا على ألاّ
يشترى شيئاً من الأصناف المفروضة عليها ضرائب إلاّ إذا رفعت
هذه الضرائب عنها . وإنى أقترح عليكم أن تأخذوا بمثل هذا المثل الرائع
الذى ضربه لكم أهالى فيلادلفيا ، وتمنعوا مثلهم عن الشراء » .
وتم الاتفاق على هذا ؛ ولم تلبث الأنباء أن جاءت بأن الأهالى
فى ماساشوسيتس وغيرها من المستعمرات عقدوا فيما بينهم اتفاقات
مماثلة . فما عسى أن يحدث بعد ذلك يا ترى ؟

ورد الجواب عن هذا السؤال فى يوم اشتد برده من أيام الشتاء
فى سنة ١٧٧٢ . ففى هذا اليوم وصل رسول من مطعم رالى ، وهو
يأهث من التعب ، يحمل أخباراً مشيرة حقاً من بوسطن . فقد وصلت
إلى ميناء المدينة ثلاث سفن مشحونة شايّاً ؛ وبدلاً من أن ينزل
العمال الشاى من هذه السفن إلى البر ، ويدفعوا الضرائب المفروضة
عليه صعد إليها جماعة فى زى الهنود الحمر وألقوا بالشاى فى البحر .
فلما رأى ذلك أوامراً ، سارعوا وقرروا إغلاق ميناء بوسطن عقاباً
لأهلها على ما فعلوا ، وأرسلوا الجنود البريطانيين لينفذوا أمر الملك .
وفى هذا الإغلاق عذاب كبير لأهالى بوسطن وإرهاق لهم .

فهب جورج واشنجطن وبادر إلى العمل فقال : إنى مستعد
كل الاستعداد لتقديم جيش من ألف رجل على نفقتى الخاصة ،
وأمضى بهم للدفاع عن بوسطن .

وقام محام شاب اسمه « توماس جيفرسون » يقترح جعل اليوم

الذى فيه أغلقت ميناء بوسطن يوم صيام وصلاة في مدينة ويليامزبرج .

حدث ذلك في شهر يونيه سنة ١٧٧٤ ، وظل رجال المستعمرات المختلفة في أمريكا على اتصال بعضهم ببعض عن طريق البريد . فبدأ لهم أن الأول بهم أن يجتمعوا معاً ليتناقشوا في شؤونهم ، بدلاً من أن يكتبوا بالمراسلات البريدية . وفعلاً وضعوا الخطوة اللازمة لعقد اجتماع في مدينة فيلادلفيا يكون أول مؤتمر قارى .

واختاروا سبعة مندوبين يمثلون فرجينيا ، منهم باتريك هنرى خطيبهم المشهور ، وجورج واشنطن الذى لم يكن أحد خارج مستعمرة فرجينيا قد سمع باسمه قبل الآن .

ولكن باتريك هنرى قال عنه : « إني أعتقد أنه لا مثيل له في فيلادلفيا كلها ، من حيث سداد الرأى ، ومن حيث سعة المعلومات » وقبل أن يسافروا إلى فيلادلفيا هذه ، قضى باتريك هنرى ، وأحد المندوبين الآخرين الليلة تلك — ليلة سبتمبر — عند واشنطن فى ماونت فرنون . وفى مساء اليوم التالى عقب فراغهم من تناول عشاء مبكر سمعوا وقع حوافر الخيل التى أعدت لهم عند الباب . فقالت مارثا للضيوف وهم يغادرون المنزل : أرجو أن تقفوا في الجلسة موقفاً حازماً ، فاني واثقة كل الوثوق من الموقف الذى سيقفه جورج .

ثم رفعت بصرها إلى الرجل الضخم ، وأمسكت بأطراف رداء سترته وهو ينحنى لها ليودعها .

وكان جاكى كوستيس، ومعه زوجته الشابة، واقفاً بجانب أمه عندما امتطى الرجال الثلاثة خيولهم واتجهوا مسرعين نحو الطريق العام، يتبعهم رتل من الخدم عليهم حللهم القرمزية اللون .
وهكذا مضى الآن أكثر من خمسة عشر عاماً على اليوم الذى جاء فيه جورج واشنجطن بمارثا وطفليها إلى ماونت فرنون .
وكانت باتسى قد توفيت الصيف الماضى ، فحمد جورج الله أنه لا يترك مارثا الآن وحدها . فبعد أن غادر البيت بمسافة غير قصيرة التفت إليها ورفع قبعته يحيطها، فحركت هى منديلها، وظلت واقفة ترقبه إلى أن اختفى عن الأبصار . انهم سيستغرقون أربعة أيام قبل أن يصلوا إلى فيلادلفيا .

وفى الأيام الأولى من شهر سبتمبر سنة ١٧٧٤ ، أخذ المندوبون إلى الكونجرس العام الأول يفدون على فيلادلفيا من شتى الطرق الكثيرة الأتربة التى توصل إليها . فبعضهم راكب عربات السفر العامة ، والبعض الآخر على ظهور الخيل . وكان عددهم واحداً وخمسين عضواً لا بسين قبعات مثلثة الأركان ، جاءوا من جميع المستعمرات الإاجيورجيا .
لأن أنباء هذا الاجتماع لم تبلغها فى الوقت الملائم . ولا شك أنهم جميعاً - وهم يفكون أربطة حقائبهم ويفتحونها فى الفنادق والمشارب العامة التى اختاروا أن ينزلوا فيها - كانوا متلهفين على رؤية أولئك الأغراب الذين جاءوا من المستعمرات الأخرى وفى أى شكل يبدون .
وكان جورج واشنجطن يتوق إلى رؤية مندوبى بوسطن : صمويل آدمز ، وابن عمه جون آدمز ؛ فقد تواترت الأنباء بأنهما

لم يعودا موالين للملك الانجليز ، بل صارا يعملان على التحرر من انجلترا والتخلص منها . ولكن جورج واشنجطن لم يستطع تصديق تلك الأنباء ؛ ومع ذلك أراد أن يستوثق من الأمر بنفسه . فمضى مساء الثامن والعشرين من شهر سبتمبر إلى حيث ينزل جون آدمز ليتحدث إليه . وكانت تلك أول مرة يتحدث فيها هذان الرجلان بعضهما مع بعض . مع أنهما قد ظلا ثلاثة أسابيع وكل منهما يرى الآخر كل يوم في أثناء انعقاد جلسات الكونجرس . فلا بد أن يكون واشنجطن على الأقل قد لمح ذلك الرجل القصير المكتنز الجسم ذا الشعر الأجعد — ذلك المحامي من ماساشوسيتس — يتجول بين الحاضرين . ومع أن جون آدمز لا بد أن يكون قد رأى كذلك ذلك المزارع الفرجيني — ذلك الرجل الضخم القليل الكلام الذى لوحته الشمس وجهه . ولكنه مع هذا لم يلق إليه بالا ، ولم يتنبه إليه إلا عندما جاء يقرع باب بيته فى تلك الليلة ، ودخل غرفته الخاصة ذات السقف المنخفض فى الدور الثانى .

وتحدث الرجلان فى كثير من الشئون . ولحظ جورج واشنجطن أن لا جون آدمز ، ولا ابن عمه صمويل ، قد ذكر مرة واحدة كلمة الحرية أو كلمة الاستقلال فى معرض حديثه . فتأكد أنهما غير راغبين فى الحرية ولا فى الاستقلال . ولكنه كان لا شك واهماً فيما ظن أنه تأكد منه .

والحق أنهما قد سبق أن حذرا من قبل . فان بعض أصدقائهما قابلوهما فى عربة المسافرين العامة قبل أن يصلا إلى فيلادلفيا ببضعة

أميال ونهوهما إلى ضرورة مراعاة الحيلة والحرص ؛ فان فيلادلفيا مكتظة بالموالين للملك، وأن كلمة الاستقلال تنزل عليهم نزول الصاعقة . وعلى هذا ، لم يذكر أحد كلمة واحدة عن الانفصال عن انجلترا تلك الليلة، ولا في أية جلسة من جلسات الكونجرس، واكتفى المندوبون بتقديم « عريضة » إلى الملك ذكروا فيها أن رعاياه المخلصين له يرجون من مليكهم الجليل الرحيم أن يحقق لهم العدالة . وبعد ذلك تفرق المندوبون ، وعادوا إلى بلادهم ، على أن يجتمعوا ثانية في شهر مايو عندما يصلهم رد الملك على ما طلبوه في عريضتهم .

ومضى فصل الشتاء كله ولم يرد أى جواب ؛ ثم حل شهر مارس وازدهرت براعم الكريز في ماونت فرنون ولم يصل بعد أى رد من الملك .

فقال باتريك هنرى في اجتماع عقد في فرجينيا ، وحضره جورج واشنطن ، لم تعد ثمة جدوى من الانتظار أكثر من ذلك : « إنا يجب علينا أن نكافح في سبيل الوصول إلى حقوقنا . ولست أدري الخطط التي سيجرى عليها سوى ، ولكنى أنادى هنا أن أعطوني الحرية أو دعوني أموت » .

واعتقد أهالى فرجينيا أن لا مناص لهم إذن من القتال ، ولذا بدأوا فعلا يدربون الشباب تدريباً عسكرياً ويسلحون فرقاً من الجنود ، وطلبوا إلى جورج واشنطن أن يتولى قيادة الجيش .

فلما رحل جورج واشنجطن إذن إلى فيلادلفيا للمرة الثانية لحضور مجلس الكونجرس لم يرحل إليها بوصفه مزارعاً، بل بوصفه جندياً يرتدى حلة عسكرية زرقاء وصفراء . وستمضى أعوام كثيرة قبل أن يعود إلى ماونت فرنون . لقد انتهت تلك السنون الوادعة المطمئنة التي كان يقضيها فيه .

كان ذلك في مايو سنة ١٧٧٥ . والآن وقد بلغ جورج واشنجطن الثالثة والأربعين فإن ذلك الجزء من حياته الذي سيكون محك أخلاقه ومقياس عظمته قد أوشك أن يبدأ .

الجنرال واشنطن

ما إن دخل جورج واشنطن دار الحكومة في فيلادلفيا حتى استرعت حيلته العسكرية الأنظار . وفي الحال رمقه جون آدمز وقال :

« هاكم رجل واحد ، مستعد للعمل ! »

وكان جون آدمز قد جاء من بوسطن آملاً أن يجد جميع المندوبين إلى المؤتمر الثاني هذا ، مستعدين للحرب والكفاح ، مثلهم في ذلك مثل مندوبي مساشوسيتس .

وليس من شك أنه كان يجب عليهم أن يكونوا كذلك ؛ فالحرب قد بدأت فعلاً . فمن أسبوعين ، في لياة من لياة أبريل ، هب بول ريفير على جواده مندفعاً اندفاعاً جنونياً لينذر سكان بلدة كونكورد أن ذوى «البذلات الحمراء» آتون إليهم . وفي الصباح التاسع عشر من أبريل ، تبودلت الطلقات الأولى بين «رجال مساشوسيتس الصغار» (كما كانوا يسمونهم) وبين الجنود البريطانيين ؛ وبذلك بدأت المعركة الأولى من معارك الثورة الأمريكية .

ولقد ساء جون آدمز أن يجد أن المندوبين مازالوا مع ذلك منقسمين بعضهم على بعض ، وأنهم مازالوا مترددين ، وفي حيرة من أمرهم لا يدرون ماذا يصنعون ؛ وبلغ به الغضب كل مبلغ في منتصف شهر يونيه ، فخرج إلى فناء دار الحكومة يستنشق الهواء ، ثم عقد عزمه على أن يعمل . فلما انعقد الكونجرس ، انتفض قائماً وألقى كلمة موجزة ثم قال :

« أعرض على الكونجرس أن يتبنى الجيش الرابض على مقربة

من بوسطن ، وأن يعين له قائداً عاماً . ولست أعرف سوى رجل واحد ، يصلح لهذا المنصب الخطير الشأن ؛ وهو سيد من فرجينيا ؛ ثروته العظيمة ، ومواهبه الكبيرة ، وأخلاقه الممتازة الرفيعة ، تتيح له أن يجمع شمل المستعمرات ويألم شعها أكثر مما يستطيعه أى شخص آخر فى الثلاث عشرة مستعمرة كلها .

وبعد أيام قلائل اختير واشنجطن قائداً عاماً بالإجماع . وفى السادس من شهر يونيه أخبر رئيس الكونجرس ، جون هانكوك ، السيد واشنجطن بنبأ اختياره قائداً عاماً للجيش .

فهنّض واشنجطن متمهلاً وقال : يا سيدى الرئيس . إني إذ أدرك حق الإدراك الشرف العظيم الذى أوليتهموني ، أعلن مخلصاً كل الإخلاص أنى لا أرى نفسى كفئاً للاضطلاع بأعباء هذه القيادة . أما من حيث الأجر فليست ياسيدى بحاجة إلى شىء منه ، وإنما سأدون بغاية الدقة جميع النفقات التى سأتحملها ؛ وهذا كل ما أُرغب فيه . وبعد أسبوع واحد غادر القائد الجديد مدينة بوسطن . وفى الثالث من يوليه سنة ١٧٧٣ وصل مدينة كمبريدج عبر النهر ، فرأى لأول مرة هذا الجيش الغريب المكون من أمشاج من الجنود غير المدربين تدريباً عسكرياً ، من صبيان الفلاحين ورجال الغابات ، وسواهم ممن انضم إليهم من الشباب . فكان جيشاً عجيباً حقاً ، على الرغم مما يحده من إخلاص ، ومن رغبة أكيدة فى العمل . فهذا هو الجيش المطلوب من واشنجطن أن يطرد به الجنود الانجليز المدربين خيراً تدريباً ، ويخرجهم من بوسطن !

حرب الاستقلال

ولدت الولايات المتحدة في اليوم الرابع من شهر يولييه سنة ١٧٧٦ . فبعد مضي سنة كاماة على تولي واشنطن قيادة الجيش ، أعلنت المستعمرات تحررها من ربة الانجليز واستقلالها عنهم . وكتب جيفرسون « إعلان الاستقلال » هذا ، ثم وقعوه بامضاءاتهم . ولم يوقعه جورج واشنطن مع من وقعوه ، لأنه كان غائبا عن فيلادلفيا يوم قراءة إعلان الاستقلال فيها ، فقد كان مع جيشه في نيويورك . وما أن وصلت نسخة من هذا الإعلان حتى أمر بتلاوته على رجاله ، فاشتعلت حماسة الجنود ، وفرحوا أيما فرح أن يسمعوا أنهم لم يعودوا رعايا للملك جورج الثالث . وهرعوا إلى الحديقة يقوضون تمثاله القائم بها ، ثم حطموا رأسه ، وأخذوا تمثال الجواد المصنوع من الرصاص وصهروه ليعملوا منه ذخيرة لبنادقهم .

على أن جورج واشنطن لم يرض عن هذا السلوك الخالى من الاحترام ، ولم يوافق عليه ، وإن كان يوافق كل الموافقة على الاستقلال ، فإنه — أكثر من أى إنسان آخر — هو الذى سيجعل من ذلك الاستقلال المكتوب على الورق أمراً ناجزاً ، واستقلالاً حقيقياً . فهو مؤمن بأن المستعمرات يجب أن تكون حرة ، وكان مستعداً كل الاستعداد لأن يقاتل فى سبيل تحريرها . وكانت حرباً طويلة مريرة ، دامت ست سنوات . منذ أطلقت

الرصاصات الأولى في مساشوستس إلى أن وقف إطلاق النار في مدينة « يورك تاون » بفرجينيا . وكان لابد أن تمضي سنتان أخريان قبل أن توقع مخالفة الصلح وتضع الحرب أوزارها فعلا .

فكانت ثماني سنوات طويلا ثقيلا على واشنطنجن ، ومليئة بكل ما يشبط الهمم ويفت في الأعضاء . فكان عليه أن يوالى شن الحرب من غير أن يكون لديه ما يحارب به . فلم يكن معه من الجنود ما يكفيه لمثل هذه الحرب ، ولم تكن المدافع والدخائر بكافية حتى لمن كان معه من الجنود فعلا ، بل ، ولم تكن الملابس ولا المؤن نفسها بكافية لهم . وزيادة على ذلك كله لم يكن معه من المال ما يدفع به أجور الجنود ، لأن خزانة الكونجرس كانت خاوية .

ومع هذا كله لم يتخرج الكونجرس من أن يطالبه بعمل المستحيل ، فكان يأومه إذا أخفق ؛ ذلك إلى أن بعض ضباطه أخذوا يفقدون ثقتهم به ، وجعلوا يكيدون له ، ويدبرون مؤامرة للقضاء عليه . بل ان واحداً ممن كان يوليهم ثقته كاملة انقلب خائناً . ومع ذلك ظل واشنطن يثابر ويثابر على ما نصب نفسه له طيلة هذه السنوات كلها ، وجعل يبذل كل ما في وسعه ليعمل بمن عنده من جنود ومن عتاد ؛ لقد صمد وصمد !

وها هي السنة الأولى قد مضت ، وقضى الجند الشتاء على الثلوج المترامية خارج بوسطن . ولما حل الربيع كان رأى الانجليز قد استقر على مغادرة الميناء ، وكان واشنطن يرقبهم بمنظاره ، وهم يصعدون إلى سفنهم ثم يبحرون .



المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية
التي حاربت إنجلترا سنة ١٧٧٦

وبحسب الأوامر التي صدرت إليه من الكونجرس نقل واشنطن جيشه المرقع إلى نيويورك كي يحاول المحافظة على هذه المدينة من أن تقع في أيدي الانجليز . ولكن تبين أن هذا أمر مستحيل ، فليس عنده من السفن ما يمنع به مراكب الانجليز من أن تدخل الميناء . وفعلا دخلها الجنرال (هاو) بمراكبه . ولما كان ما عند الجنرال الانجليزي ضعفاً ما عند واشنطن من الرجال استطاع أن يدهر الأمريكيين ويبعدهم عن المدينة ، وظل يطاردهم على نهر هلسون حتى عبروا هذا النهر إلى « نيو جرسى » فاكتمى بما نال من انتصار وعاد إلى نيويورك .

وفي نيويورك وجد أن اللورد كرنواليس قد وصل من إنجلترا ومعه طائفة كبيرة من الجنود الألمان المرتزقة استأجرهم ليحاربوا معه في صفوفه . فأرسلهم الجنرال هاو لمطاردة الأمريكيين ، واستمرت المطاردة أسبوعاً بعد أسبوع ، وشهراً بعد شهر ، في نيو جرسى ، واستمر واشنطن وجنوده يتقهقرون ويتقهقرون ، والعدو على أعقابهم يطاردهم كما تطارد كلاب الصيد ثعلباً .

ولما كان واشنطن يتقهقر بسرعة كبيرة لم يتيسر له أن يحمل معه ما يكفي من المؤن ، فأخذت جنوده تهرب من الجيش ، وانقلب عليه بعض ضباطه . ولما شرع يعبر نهر الديلاوير عند بنسلفانيا استولى الذعر على الكونجرس . وتوقع أعضاؤه أن يروا كرنواليس وجنوده يدخلون نيويورك في أية لحظة .


كان ذلك في شهر ديسمبر ، ومن العسير على البريطانيين أن



وفي شهر ديسمبر عبر واشنطن نهر اللابلاندر على الرغم من تجمد
مياهه لشن هجوم مفاجيء على العدو

يعبروا نهر الديلاوير لأن معظمه قد تجمد ، وزخرت مياهه بكثير من قطع الجليد الطافية ؛ ولذا اضطرت الطلائع التي أرسلها كرنواليس أمامه للتوقف عن المسير ، في مدينة ترنتون من ناحية جرسى . ثم دخل عيد الميلاد ، وجعل الجنود الألمان الذين استوَجروا من هسّه يحتفلون به على طريقتهم ، فظلوا يشربون الخمر ، وينشدون أناشيدهم القومية طول اليوم حتى ساعة متأخرة من الليل .

وفي هذه الليلة ذاتها عاد واشنجنطن وعبر نهر الديلاوير على الرغم من تجمد مياهه ، فعبره عند نيو جرسى في مراكب صغار وسط الثلوج الكثيرة المتساقطة ، التي تكاد تعشى الأبصار ، ثم انقضوا في الفجر على الجنود المحمورين الذين غلب عليهم النعاس فأسروهم . فلما وصل كرنواليس كان واشنجنطن حيث هو .

فقال كرنواليس « الآن سأصيد ذلك الثعلب العجوز الماكر هذه الليلة » . ووضع خطته للقبض عليه في الصباح . ولكن كرنواليس استيقظ فوجد الثعلب العجوز أشد مكرّاً وأوسع حيلة . لقد أفلت 

فبينما كان كرنواليس يغط في نومه ، تسلسل واشنجنطن في الظلام تاركاً زيران معسكره موقدة لتخدع الحراس الانجليز ، فيظنوا أنه لا يزال حيث هو ، على حين أنه قد استطاع أن يتسلل حول خطوط أعدائه ويهرب . ولما طلع الفجر كان هو وجنوده قد ساروا مسافة بعيدة واتجهوا نحو الشمال . فحدثت موقعة في برنستون انتهت بفوز الانجليز ، وبها اختتمت معارك هذا الشتاء ؛ وعاد كرنواليس إلى

نيويورك؛ ومضى واشنطنجن إلى نيو جرسى ليعسكر فيها طيلة فصل الشتاء. وجاءته مارثا زوجته من ماونت فرنون لتكون إلى جانبه، فعكفت على الجوارب تصنعها للجنود، ثم غادرت المعسكر عند حلول الصيف فقد كان متوقعا أن يُستأنف القتال.

ولم يكن واشنطن يدرى أين سيبدأ القتال، ولا أية مدينة يقصد الانجليز أن يستولوا عليها، ولكن كان في استطاعته أن يحزر وظل هذا موقفه حتى قرابة أول أغسطس.

فقد جاءته طلائعه من الكشافة تخبره بأن الجنرال هاو غادر مدينة نيويورك. وشوهدت السفن البريطانية تمخر في خليج «تشسابيك» فلم يعد ثمة ريب في أنها قاصدة إلى فيلادلفيا!

فاضطرب الكونجرس وتفرق أعضاؤه، وفتح «الشوار» الذين ظاوا في فيلادلفيا. فكى ينفث فيهم واشنطن الشجاعة أمر جنوده بالمسير في شوارع المدينة أمام الدار التي تم فيها توقيع إعلان الاستقلال بتلك الجرأة الكبيرة وذلك الإقدام العظيم. وفعلا سارت الجنود، رجالا وصبياناً، يتقدمهم قائدهم المخلص بكل شجاعة، ينشدون أغنية من أغانيهم تعرف باسم «يانكى دودل» تصحبهم المزامير والطبول، وقد وضعوا على قبعاتهم البالية فروعاً صغاراً من الشجر الأخضر لتخفى ما بها من بلى ومن ترقيع.

وبينا كان الشوار يهتفون للجنود وهم يسرون في ملابسهم الممزقة كان «المحافظون» يسخرون منهم ويستهزئون بهم؛ فقد كان لا يزال في فيلادلفيا كثيرون من هؤلاء الأمريكيين الذين ظلوا

على ولائهم لملك الانجليز ، وكانوا يتلهفون أن يسمعوها أن البريطانيين
دخلوا مدينتهم . وبعد معركة أو اثنتين استطاعوا أن يدخلوها فعلاً .
ففى أوائل أكتوبر كان الجنرال هاو وجنوده يتجهون نحوها وما لبثوا
أن استولوا عليها فبقيت فى أيديهم الشتاء كله وظلت بها جنودهم
فى مرح واطمئنان .

وعلى مسافة لا تزيد على العشرين ميلاً كان واشنجطن وجنوده
يعانون الكثير من قسوة الشتاء على التلال المكشوفة عند «فالى فورج»
وقد أخذ منهم الجوع كل مأخذ ، ويكاد الصقيع أن يجمدهم ،
والبرد يقرسهم ؛ فالكثيرون منهم حفاة لفوا أقدامهم المتعبة المتشققة
بخرق بالية ، فكانت تدمى وتترك آثارها دماء قانية على الثلوج ،
وهم يتنقلون من مكان إلى مكان يقطعون الأشجار ، ويقيمون
من جنودها أكواخاً وعروشاً ليأووا إليها . وكان واشنجطن فى
خيمة على مقربة من رجاله ، يعيش معهم ، ويأكل مما يأكلون .
وظل على ذلك إلى أن أنجز الجند هذه الأكواخ الخشبية ، فانتقل
إلى بيت صغير مبنى بالأحجار على مقربة من الخليج ، وجاءته
مارثا كعادتها ، تقضى فصل الشتاء إلى جانبه ، فجعلت تنقل أيام
الصحو من كوخ إلى كوخ ، وقد علقت سبطاً فى ساعدها ، تزور
المرضى من الجند وتواسيهم ، وتعمل كل يوم فى صنع الجوارب ،
ورفو الملابس وترقيعها مع زوجات الضباط الآخرين .

وقضى واشنجطن هذا الشتاء مهموماً ، منقبض الصدر ،
حزناً على ما عاناه جنوده من متاعب ومشقات ، فضلاً عما قاساه

هو مما كان يصله من خطابات من الكونغرس كلها لوم ونقد ؛
على حين أن أعضائه لم يقدموا له أية معونة تذكر . ذلك إلى أنه
وقف على مؤامرة حيكت ضده بقصد القضاء عليه وعزله وإحلال
قائد آخر مكانه . على أن ذلك كله لم يفت في عضده بحال من
الأحوال ، بل صمد وثابر واحتفظ بشجاعته ، فثبت للعدو على
على الرغم مما كان يتأذى به من عدم ثقتهم به . وعلى مر الزمن
انكشفت المؤامرة ، وانقضى ذلك الشتاء المرير ، وعاد الربيع —
ربيع سنة ١٧٧٨

ومع الربيع جاءت أخبار طيبة — أخبار عظيمة رائعة حقاً .
فدأت يوم من أيام شهر مايو كان المعسكر كله غارقاً في الاحتفالات
والاستمتاع بالمسرات ، وقد بلغ السرور بصاغ شاب أن اندفع وألقى
ذراعيه على واشنطن يعانقه ويقبله في وجنتيه ، ولم يكن هذا
الصباغ غير المركيز لافاييت . وهو شاب فرنسي لم يتجاوز العشرين
من عمره ؛ فما عسى أن يكون سبب هذا الفرح كله ؟
لقد انضمت فرنسا إلى أمريكا في كفاحها ضد الانجليز ،
ووقع لويس السادس عشر ملك فرنسا معاهدة مع بنجامين فرانكلين
الذي ذهب إلى فرنسا يستعين بها على الانجليز .
وكان لافاييت قد غادر فرنسا منذ سنة واحدة . وجاء إلى
أمريكا ليشارك معها في كفاحها في سبيل التحرر من الانجليز ،
فتسلل إلى الميناء متخفياً بأن وضع على شعره الأحمر الطبيعي شعراً
آخر مستعاراً حالك السواد . فقد منعه الملك من مغادرة فرنسا

ليذهب إلى أمريكا . أما الآن فقد غير الملك رأيه وأصبحت فرنسا
تعاون أمريكا في حربها ضد الانجليز ، ولسوف تصل الجنود والسفن
الفرنسية من غير إبطاء .

وغيرت هذه الأخبار خطط البريطانيين ، فعاد الجنرال هاو
إلى إنجلترا تاركاً القيادة في أيدي جنرال آخر غيره ، ولما علم القائد
البريطاني أن أسطولاً فرنسياً قد اتجه صوب نيويورك ، رأى أن
وجوده فيها قد يكون أفيد من بقائه في فيلادلفيا . ومن أجل هذا غادر
فيلادلفيا يتلوه رتل من عربات البضاعة إلى أن بلغ نيويورك على بعد
اثني عشر ميلاً . فتبعه واشنطنجن ، وعسكر غير بعيد عنه في موضع
يمكنه من الإشراف على المدينة ويترقب وصول الأسطول الفرنسي
آملاً أن يتمكن من استرداد نيويورك بمساعدة هذا الأسطول .

ولكن يا نحبة الأمل ! فقد وصلت السفن الفرنسية في شهر
يوليه حقاً ، إلا أن مياه الميناء لم تكن من العمق بحيث تمكن هذه
السفن الضخمة من دخولها ، فارتطمت قيعانها بالرمال ، وعجزت
عن دخول الميناء ، وظل الانجليز في نيويورك . وظل واشنطنجن
وجنوده متخذين موقف الحراسة على مقربة منهم حتى نهاية الحرب .
ولكن ميدان الحرب انتقل من هذا الوقت إلى الولايات الجنوبية
الأربع . فبدأ في جيورجيا ربيع سنة ١٧٨٠ ، وهي السنة الخامسة
للحرب ، واخترق الانجليز جيورجيا هذه ، ثم كارولينا الجنوبية
بقيادة اللورد كرنواليس ، وكان قد تحرك إلى كارولينا الشمالية ،
ثم اتجه إلى فرجينيا . وتلك أخبار محزنة لواشنطن حقاً . على أن

الأمر لم يخل من وصول أخبار طيبة .
فقد وصلت الجنود الفرنسية أمريكا ، ونزلت بنيوبورت
في رود آيلاند ؛ فاصطحب واشنطن لافاييت وسارا معاً للتشاور
مع القائد الفرنسي ، الشيخ الصديق الذي يناديه جنوده « بابا روشامبو »
وكان واشنطن يأمل أن يهاجم القائد الانجليزى في نيويورك ،
ولكن الحزم والكياسة منعه من أن يحاول شيئاً من ذلك قبل أن
يصل أسطول فرنسى آخر كان في طريقه إلى أمريكا فعلا ؛ فلم
يبق له إلا الانتظار ، حتى تنتهى هذه السنة ثقيلاً بطيئة . ثم في أوائل
السنة التالية علم واشنطن من توماس جيفرسون ، وكان وقتئذ
الحاكم على فرجينيا ، أن الجنود البريطانيين دخلوا هذه الولاية فعلا ،
وجعلوا يحرقون كل ما يصادفهم في طريقهم من مخازن التبغ ،
ويعيثون في البلاد فسادا فكلف واشنطن لافاييت بالسير جنوباً
في الحال ، وأرسل معه جميع من يستطيع الاستغناء عنهم من الجنود .
وما لبث واشنطن أن جاءته الأخبار بأن القائد كرنواليس
نفسه صار هو الآخر في فرجينيا . وعندئذ رأى واشنطن أن الأولى به
أن ينتظر حتى ترد إليه أخبار من لافاييت .
وأخيراً أرسل إليه لافاييت ، في الحريف ، يعلمه بضرورة حضوره
إلى الجنوب على جناح السرعة ؛ فقد وصل الأسطول الفرنسى
خليج تشسايبك ، وتمكن القواد الأمريكيون من أن يحيطوا
بكرنواليس ويحصره في « يورك تاون » .
وما إن علم واشنطن بهذه الأخبار حتى سارع هو وروشامبو

واتجهوا في الحال نحو الجنوب . وما لبثت الجنود الأمريكية في خرقهم البالية ، والجنود الفرنسية في حللهم الرائعة ، أن تحركوا وسط هتافات الشعب وتهليله ، فانطلقوا مدينتي فيلادلفيا وبلتيمور ، وعبروا نهر البوتوماك إلى فرجينيا . وذات ليلة في ساعة متأخرة في ماونت فرنون أوقظت الأسيرة كلها ، فهبوا من نومهم دهشين أن يروا واشنطن نفسه واقفاً أمامهم . وفي اليوم التالي ، حضر بابا روشامبو فاحتفى بهما الجيران أيها احتفاء ، ولكنهما لم يلبثا حتى رحلا .

ورافق جاكى كوستيس واشنطن بوصفه ياوراً له ، فودع بناته الصغار الثلاث وطفله الوليد وداعاً كان هو الأخير . فان جاكى كوستيس لن يعود إليهم .

وفي ويليامزبرج ، على بعد عشرة أميال من « يورك تاون » ، وجد واشنطن لافاييت في انتظاره ، وما إن رأى هذا قائده المحبوب حتى تهلل وجهه وأشرق ، وبدأت عليه سماء الفرح والسرور .

وفي التاسع من أكتوبر سنة ١٧٨١ ضربوا الحصار على مدينة « يورك تاون » ، فأطلق واشنطن أول مدفع . ثم ظلت المدافع تدوى وتقصف عشرة أيام متوالية حتى انعقدت سحب الدخان كثيفة في سماء المدينة الصغيرة . وأخيراً وقف إطلاق المدافع .

فقد استسلم كرنواليس .

وفي الساعة الثانية مساءً ، وشمس أكتوبر لا تزال ترسل أشعتها على بذلاتهم الحمراء ، خرج الانجليز من مدينة « يورك تاون » ،

وفرقهم الموسيقية تعزف لحناً بريطانياً معروفاً : « انقابت الدنيا رأساً على عقب » .

وساروا بين صفوف متوازية من الجنود الفرنسيين والأمريكيين ، وقفوا كلهم في صمت رهيب ، واحترام عميق ، فبذلك أمرهم قائدهم واشنطن ؛ ثم ألقى البريطانيون أسلحتهم .

وفي اليوم التالي لاستسلامهم ذهب كرنواليس إلى الجنرال واشنطن وقدم إليه فروض الاحترام . وبعد ذلك بقليل كان كرنواليس . بين صفوف الذين دعاهم واشنطن إلى المأدبة . التي أمر باقامتها لضباط الجيوش الثلاثة .

أما جاكى كوستيس فقد اشتد عليه المرض في ويليامزبرج ، وسارعت إليه زوجته ووالدته من ماونت فرنون . وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وعده واشنطن بأنه سيتبنى طفله الصغيرة نيللى التي في الثالثة من عمرها ، وكذا ابنه الصغير سمي جورج واشنطن .

وهكذا استسلم كرنواليس إذن ! فظن الناس أن الحرب قد وضعت أوزارها وانتهت ؛ ولكن الحرب لا تنتهى فعلاً إلا بعد رحيل البريطانيين عن نيويورك ، وبعد أن يوقع وزراء جورج الثالث معاهدة الصلح . ولذا كان واجباً ألا تسرح الجنود الأمريكية ؛ فوجد واشنطن مشقة كبيرة في استبقائهم مجموعين مالمومى الشمل ، فقد نفذ كل صبرهم واستولى عليهم القلق ، وركبهم الغضب ، فان أجورهم لم تصرف إليهم بعد ، فانها لوا على الكونجرس لوماً وتعنيفاً .

وقد بلغ بهم الغضب أن تجاسروا واقترحوا على جورج واشنطن أن يتقدم ويقبض على ناصية الأمور ، ويديرشئون الدولة بنفسه بعد أن يقلب الحكومة القائمة ويقيم نفسه ملكاً على البلاد . ولكن ما سمع واشنطن بذلك حتى كاد يصعق ، فسارع إلى عقد اجتماع من الجنود ، ورجا منهم ألا يعملوا شيئاً من شأنه أن يقلب حرية بلادهم هذه ، أو يفسد عليهم ما حازوه من مجد وفخر . وإذا كانوا يثقون به ويؤمنون كل الإيمان أذعنوا لرأيه ، وأبدوا استعدادهم لاتباعه ؛ وظلوا على إخلاصهم للحكومة القائمة وللكونجرس . وبعد توقيع معاهدة الصلح بشهرين وصلت أخبارها الطيبة إلى أمريكا . ففي أبريل سنة ١٧٨٣ قرئ إعلان توقيع المعاهدة على الجنود ، ثم سرحوا ، وغادر الانجليز البلاد .

وفي الرابع من ديسمبر ، بمشرب «فرنسيس» بمدينة نيويورك ، قابل واشنطن ضباطه ليوذعهم ، ولكن لما وقع نظره عليهم لم يستطع الكلام ، على أنه عاد وتمالك نفسه وقال :

«بقلب مفعم بالشكر ، ملئ بالحب ، أستأذنكم ؛ وأرجو مخلصاً أن تكون أيامكم المقبلة سعيدة ناجحة بقدر ما كانت سابقها مجيدة شريفة» ثم مروا جميعاً أمامه واحداً بعد واحد ، استجابة إلى طلبه وصافحوه من غير أن ينبس أحدهم بكلمة ما . ثم راقبوه وهو يسير نحو الشاطئ ، حيث كانت تنتظره سفينة راسية عنده . ولما سارت به بطيئة متمهلة ، وجهوا إليه أنظارهم فرأوه واقفاً ينظر إليهم رافعاً قبعته بيده .

لقد نالوا الاستقلال .

فحيثما سار جورج واشنجطن استقبلته الجماهير بالهتاف وعبارات الترحيب ، وأقيمت المآدب والمراقص تكريماً له . وظل في فيلادلفيا برهة قدم فيها إلى وزير المالية حساباً دقيقاً عما أنفقه في الحرب من أموال .

ثم سار من فيلادلفيا إلى « أنابوليس » من أعمال مارييلاند ، حيث كان الكونجرس منعقداً ، فقدم إليهم استقالته من قيادة الجيوش . ثم في ليلة عيد الميلاد رؤى جورج واشنجطن راكباً عربة وإلى جانبه زوجه مارثا . وكانت هذه العربة تسير بهما ميممة شطر منزله . وهكذا عاد إلى بيته الوادع الحبيب إليه في ماونت فرنون بعد ثمانى سنوات قضائها في الحرب والكفاح .

نيللى

الليلة ، يحتفل بعيد الميلاد فى ماونت فرنون . فامتلاً البيت بالنبات الدائم الخضرة وبالأشجار ، لأن جد نيللى سيعود الليلة ، فلا غرو ان ظلت نيللى كوستيس الصغيرة تترقب عودته طيلة المساء فارتدت ثوبها الموسلين الأبيض ، وتمنطقت بمنطقتها الجديدة الزرقاء ، وكان ثوبها الجديد هذا فضفاضاً بالإضافة إلى طفلة صغيرة مثلها لم تعد الخامسة من عمرها . فظلمت المساء كله تثب المرة بعد المرة إلى النافذة لعلها ترى العربة التى تقل جدها قد لاحت لها من بعيد .

وكان أخوها الصغير يجرى حولها يتبعها أين ذهبت ، وأمه تهوول خلفه خشية أن يخرج من البيت إلى حيث البرد لأن الباب كان مفتوحاً وكانت العربات تمر من المدخل ، والضيوف يتوافدون بعضهم إثر بعض — ولكن جدها لم يحضر بعد .

ثم أرخى الظلام سدوله وأخذت السماء تثلج ، وجعلت نيللى ترقب اللهب فى الموقد وهو يتلوى حول كتل الخشب ثم يتطاير صعداً من المدخنة ، فتناولت غصناً من نبات كان قد سقط على الأرض ، وإذا بها تسمع وقع حوافر الخيل ، فهرولت إلى الباب : لقد حضروا !

وكانت وجنتا جدتها حمراوين وباردين عندما قبلتهما ، ونظرت إلى جدها فاذا ندف الثلج قد تعلقت بأهدابه وبقبعته المثلثة الأركان ، وسقطت على كتفى (سترته) الطويلة المبطنة بالحرير الأحمر .

أما حذاؤه الأسود فكان مصقولاً ، يلعب مثل أحذية الضباط الفرنسيين الذين جاءوا معه . ثم تقاطرت الضيوف يتلو بعضهم بعضاً والتفوا حول جدها ، حتى لم تعد تستطيع رؤيته إلا بكل مشقة ، وفعلاً لم تره إلا بعد انقضاء عطلة عيد الميلاد عندما تغير الجو واشتد البرد ، ولم يعد أحد من الضيوف في البيت .

وعندئذ ما أروع ما استمتعت به من السعادة مع جدها ! فقد كان معنياً بوضع رسم جديد للبيت كما يوده أن يكون ؛ فرسم ظلة عند الجانب المواجه للنهر ، وجعل لها ثمانية أعمدة طوال ؛ ووضع على السقف قبة عليها شكل ديك يتحرك فيبين اتجاه الرياح ؛ وخطط على الجانب الآخر حديقتين جديدتين ؛ وخصص رقعة من الأرض للعب « الكرة » ووضع نقطاً صغيرة تمثل مواضع الأشجار الجديدة التي اعتزم أن يغرسها . وكلما قالت لنيلي أمها ألا تضايق جدها قال لا بأس إنها إنما تساعدني .

ولما حل الربيع عاونت نيللي على غرس هذه الأشجار الصغيرة ، وتجولت في الحديقة ، وتحدثت إلى جدها عن كثير من الأمور التي قال عنها جدها ذات يوم إنها لم تكن لتخطر له على بال لولا نيللي .

السيد الرئيس

ما كاد جورج واشنطن يسمع بعبارة « رئيس الولايات المتحدة » حتى اضطرب فؤاده . وكان أول ما سمع بذلك في اليوم الرابع عشر من إبريل سنة ١٧٨٩ ، وهو واقف في حجرة الطعام بماونت فرنون ، بعد أن عاد من رياضته الصباحية على ظهر جواده في المزرعة . فهنا ، وقد أحاط به أفراد الأسرة جميعاً ، سمع الرسول الموفد إليه من الكونجرس يعلنه بأنه قد انتخب بالإجماع أول رئيس للولايات المتحدة .

أول رئيس للولايات المتحدة ! يالها من مهمة شاقة جد خطيرة ! لقد مرت عدة شهور وهو يخشى كل الحشية أن يتم ذلك الأمر ؛ والآن أصبح يشعر أنه أشبه ما يكون بشقي صدر عليه الحكم . لقد سبق له أن قام برحلة غامر بها في مجاهل الشمال الغربي ، ولكن كان ثمة أثر ضئيل ينير له الطريق الذي يسلكه . وفضلاً عن هذا ، كان معه بعض الأدلاء يرشدونه ؛ أما في هذه الرحلة فلم يكن أحد سبقه إليها ؛ ولم يكن ثمة طريق يهجه ، ولا دليل يرشده ؛ بل لم يكن شيء ما ؛ إذ لم يكن قبله رئيس للولايات المتحدة قط ، بل لم تكن ثمة ولايات متحدة إلا بعد سنة ١٧٨٧ .

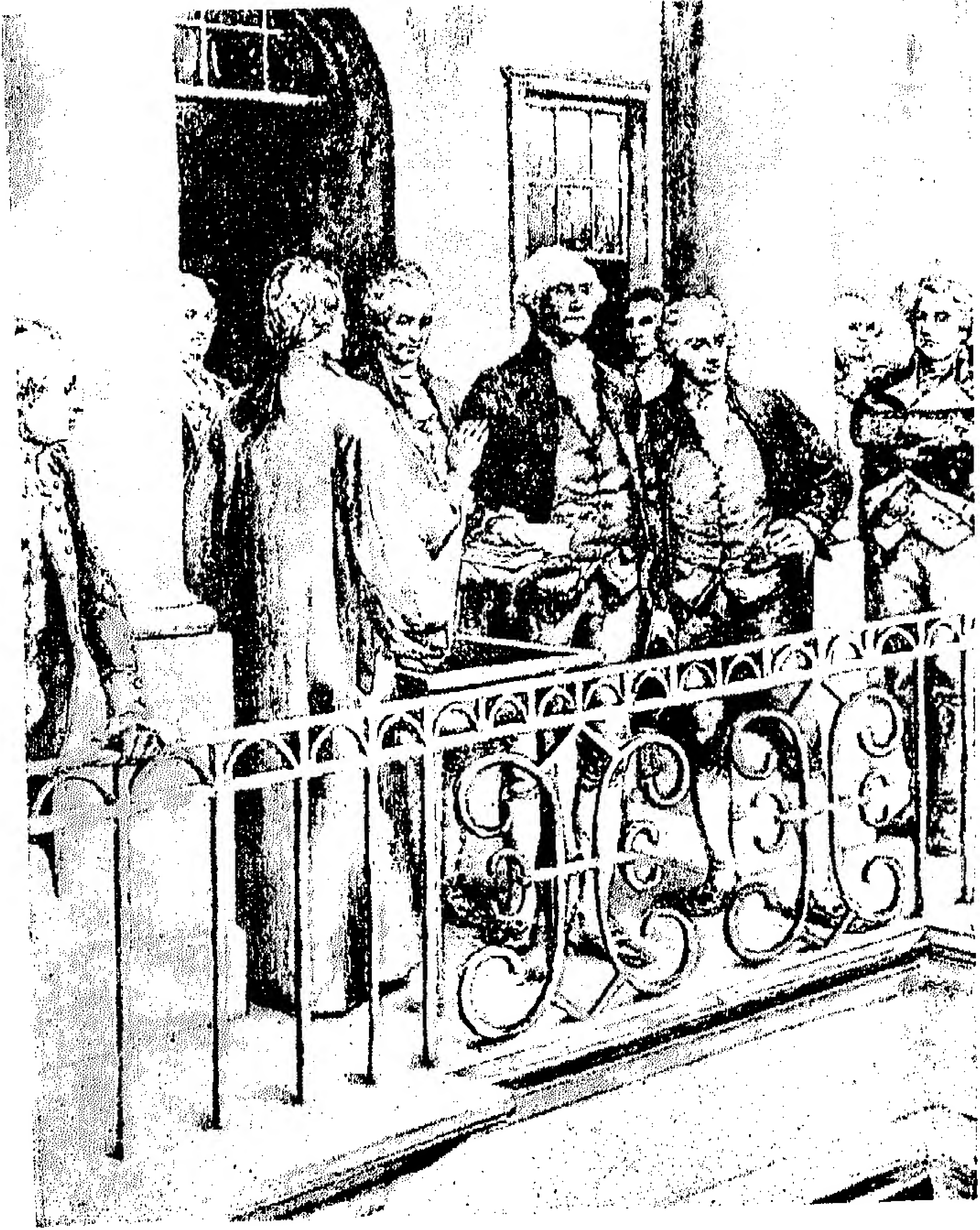
ولم تكن المستعمرات الثلاث عشرة طيالة الحرب كلها مرتبطة بعضها ببعض إلا برباط مسترخ غير وثيق ، كأنها عدة أمم صغيرة ، ولذا أخذت عقب الحرب تنفصل بعضها عن بعض ويتشاحن

بعضها مع بعض ، فلم يعد هناك خوف يربطها الواحدة بالأخرى .
فلما رأى واشنطن ذلك امتلأ قلبه حسرة وأسفاً ، كما أسف كذلك
في مختلف أرجاء البلاد ، كل رجل يحرص على رعاية سلامتها وسعادتها

وكان مندوبو المستعمرات قد اعزموا في مايو سنة ١٧٨٧
أن يجتمعوا ثانية في فيلادلفيا ليروا ما يمكن عمله لإيجاد اتحاد بينهم
يكون أثبت دعائم وأكمل نظاماً ؛ فصارت النظم والقواعد التي
وضعوها دستور الولايات المتحدة ، وذلك بعد أن استغرق المندوبون
أربعة شهور متوالية ليصلوا إلى اتفاق فيما بينهم ، وبعد أن استغرقت
الولايات المختلفة سنة أخرى قبل أن تتم موافقتها على المشروع .

وفي يناير سنة ١٧٨٩ اختار الشعب الناخبين ، ثم اختار هؤلاء
الناخبون الرئيس . ثم اجتمع الكونجرس الجديد في شهر مارس
من هذه السنة عينا في مدينة نيويورك . وها هو الرئيس الجديد
المنتخب يغادر بيته في شهر إبريل .

وكان قد طلب أن يكون استقباله في نيويورك بسيطاً ، كل
البساطة . ولكن الكونجرس أجد له مع ذلك استقبالا رائعاً ، فقامت
لجنة خاصة تستقبله في نيويورك عبر الميناء ، على أن تقوم منها
سفينة كبيرة فخمة مزدانة بالأعلام ، ويدفعها ثلاثة عشر مرشداً
من مرشدى الميناء ، مرتدين حللهم البيضاء ، لتقله عبر الميناء إلى طرف
وول ستريت . هذا ، وكانت الأعلام ترفرف على كل مكان ،
وازدانت المباني والعمارات بأقواس نصر من الزهر والورد ،



جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة
وهو يقسم اليمين في ٣٠ ابريل سنة ١٧٨٩

واصطفيت جموع الشعب على جوانب الشوارع يرحبون بمقدم الرئيس ويهتفون له .

وكانت الفرق الموسيقية تملأ الجو بأنغامها ، والمدافع تحي الرئيس بطلقاتها . ذلك ما كان من أمر استقباله . أما حفلة تقليده الرئاسة فقد أجلت حتى ينتهى الكونجرس من المناقشة فى الطريقة التى ينبغى أن تراعى فى مخاطبة الرئيس . فهل يخاطب يا ترى بلقب صاحب الجلالة الملكية ؟ ولكن تلك هى الطريقة التى تتبع فى مخاطبة الملوك ؛ فكيف يخاطب رئيس الجمهورية ؟ هل يخاطب بعبارة « صاحب السمو الأفخم ؟ » أو بعبارة « صاحب العظمة السامية ؟ » أو بماذا ؟ وأخيراً نهض السير جيمس ماديسون الذى كان عضواً فى لجنة وضع الدستور فحسم الأمر بقوله : « يجب أن يقتصر فى مخاطبته على « عبارة السيد الرئيس فحسب ! »

فقال جون آدمز : هذا فى سمعى أشبه ما يكون بأنه رئيس فرقة لإطفاء الحريق . وكان جون آدمز جالساً تحت قبة من الخمل الأحمر أمام مجلس الشيوخ ، وكان قد انتخب وكيلاً للرئيس لأنه كان يليه فى ترتيب عدد الأصوات .

وتقرر بعد ذلك أن يحلف الرئيس اليمين فى الثلاثين من إبريل ، بعد الظهر بقليل ، فى الشرفة التى خارج قاعة مجلس الشيوخ . واحتشدت جموع الناس فى الشوارع . فلما برز واشنطن وأطل عليهم بدا لهم ضعيفاً مريضاً ، فقد كانوا يطالبونه بأكثر مما فى طاقته ، ولكنه عاد واستجمع قواه ، وتقدم بضع خطوات ووضع

يديه على الكتاب المقدس وحلف اليمين فقال : « أقسم أن أؤدى عمل رئيس الولايات المتحدة بكل أمانة وإخلاص ، ولن أدخر وسعاً فى أن أحافظ على دستور الولايات المتحدة وأصونه وأدافع عنه . »

وهتف الشعب : « بارك الله جورج واشنطن ! » « عاش رئيسنا ! »

وسُرت نيللى كل السرور أن تكون حفيدة الرئيس ، وأن تعيش معه فى نيويورك — تلك المدينة الكبيرة التى يقطنها ثلاثون ألفاً من السكان ؛ وطاب لها أن تسمع الناس كلهم ينادون جدتها بالسيدة واشنطن ؛ وأعجبها أن تشاهد أولئك السيدات الأنبيقات اللواتى جئن ليشهدن حفلة الاستقبال ، واستحسنن طريقتهن فى تصفيف شعورهن بما وضعن عليها من الدرور الأبيض ، وكومنها عالية على رؤوسهن ، وزينتها بالشرائط وریش النعام .

وأقامت جدتها حفلة استقبال فى أول ليلة جمعة ، وسمحت لنيللى ولأخيها واشنطن الصغير أن يحضرا هذه الحفلة برهة . أما جدتهما فقد اختار أن يكون يوم الاستقبال عنده يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، ولكنه جعله استقبالا مقصوراً على الرجال وحدهم . وكان يرتدى فيه عادة حلة من المخمل ، فيبدو فيها جميلاً رائعاً ؛ ولكنه كان أحياناً يرتدى حلة سمراء ذات أزرار ذهبية نقش عليها صورة نسر يحمل فى منقاره ثلاثة عشر سهماً .

مرض الرئيس ذات مرة ، وظل يعانى المرض مدة غير طويلة ،

فقد حبل طويل عبر الشارع حتى لا تمر فيه عربات تحدث ضوضاء
تقلق راحته ، ولم يسمح لنيللى فى أثناء مرض جدها أن تظل
تتدرب على العزف على الآلة الموسيقية التى تتعلم عليها ؛ ولكن لما
عادت إليه صحته واسترد عافيته ، كان الأربعة جميعهم يخرجون
كل يوم تقريباً فى رياضة طويلة فى العربة .
وقال لهم جدهم إنهم سيذهبون فى الشتاء التالى إلى فيلادلفيا ،
لأن عاصمة البلاد ستتغير .

العاصمة الجديدة : واشنطن

كان المساحون يعملون ذات يوم من أيام شهر يونية في بضع حقول وغابات عبر نهر البوتوماك من ناحية الاسكندرية . وكان جورج واشنطن مع آخر أصغر منه سنّاً يراقبانهم من حقل تبغ قديم على قمة ربوة عالية ؛ وكان الهواء نسيماً عليلًا ، وفي السماء الزرقاء الصافية تسبح فوقهم بضع سحب بيضاء . ففي مثل هذا اليوم الصائف الصحو منذ اثنتين وأربعين سنة كان واشنطن مساحاً صغيراً يعمل في مسح مدينة الاسكندرية ، أما الآن ، وهو في التاسعة والخمسين ، فإنه يعمل رئيساً للولايات المتحدة ! اختار واشنطن هذه البقعة التي وراء نهر البوتوماك الحبيب إلى نفسه لتكون مقراً للدولة الجديدة ؛ وفيها أخذوا يبنون عاصمة جديدة . أما زميله الذي كان معه يحمل مخططاً من الرسوم والخرائط ، فهو المهندس الفرنسي الذي اختير ليضع تصميمًا للعاصمة فجاء الاثنان كلاهما هذا المساء ليختارا مواقع المباني المختلفة ، فاتفقا على أن يكون مبنى الكونجرس على قمة الربوة ، وأن يكون مركزاً تتفرع منه شوارع كثيرة .

فقد قرر الكونجرس منذ أكثر من سنة — بعد أن ظل أعضاؤه يتنقلون من مدينة إلى مدينة — قرر أن يتخذ له مقراً دائماً. وظل الأعضاء يتناقشون ويتجادلون مدة طويلة قبل أن تتفق آراؤهم على المكان الذي يجب أن يختار ، ولكن الآن فقد وهبهم « ماريلاند »

بعض الأراضي التي وقع عليها اختيارهم ، واشتروا البعض الآخر من أصحابه . على أن بعض هؤلاء الملاك طلبوا أثماناً عالية مرهقة مما اضطر واشنطن نفسه إلى الحضور من فيلادلفيا ليناقشهم فيما طلبوا من أثمان لأراضيهم .

فقال لأحدهم وكان اسكتلندياً عنيداً : لا تنس أنه لولا المدينة الاتحادية ما كنت تستطيع أن تبيع أراضيكَ مطلقاً ، ولقضيت حياتك كلها فقيراً .

فرد عليه المستر برنز ، وكان هذا اسمه ، : ولو لم تزوج أنت من الأرملة كوستيس ذات الثراء الواسع لبقيت طول عمرك مساح أراض - مساحاً فقيراً حقاً . .

على أن المستر برنز رضى آخر الأمر . وكان يملك قطعة الأرض التي وقع عليها الاختيار ليقام فيها قصر الرئيس . وكذلك رضى غيره من الملاك الآخرين .

ثم قام المساحون بتطهير قطعة أرض حول البقعة كلها سعتها نحو عشرة أميال مربعة ، وأقاموا فيها معالم من الحجر، بين كل معلم وآخر ميل واحد لتدل الناس على أنها ملك الولايات المتحدة كلها ، فكان ذلك هو إقام « كولومبيا » كما أسماه توماس جيفرسون ، وماديسون، وغيرهما من أعضاء اللجنة التي قامت بشرائها. وهم الذين أطلقوا على المدينة التي رجوا أن يتم بناؤها في مدى عشر سنوات اسم واشنطن . ولكن واشنطن نفسه لم يستعمل هذا الاسم في حياته مطلقاً بل ظل يسميها في تواضع عظيم المدينة الاتحادية .

الرئيس يحافظ على السلام

كانت المدة الأولى - الأربعة الأعوام - من رئاسة جورج واشنطن هادئة هائلة بالإضافة إلى مدته الثانية من الرئاسة . فقد حصل فيها على جميع أصوات الناخبين ، مثلاً حصل عليها في المدة الأولى ؛ ولكن لم يكد الشعب يبدى ثقته العظيمة به حتى أخذ كثيرون يقولون عنه إنه لا يعرف شيئاً عن عمله ، وأنه جمحد غير مخلص ؛ وغير أمين ؛ وأنه أخرق أبله ؛ بل بلغ بهم الأمر أن قالوا عنه أنه خائن . فأمّ ذلك كاه ؟

لأنه أبى أن يعلن الحرب .

كان ذلك في عصر الثورة الفرنسية الكبرى ، فقتل الفرنسيون ملكهم لويس السادس عشر ، وكادوا أن يقتلوا ماكنهم كذلك . لقد تخلصوا من الحكومة الملكية وأقاموا بدلها حكومة جمهورية ، وأرهبوا ملوك أوروبا كلهم وأفزعوهم ، مما جعل كل دولة أوروبية تقريباً تشن الحرب على فرنسا . وكذلك فعلت إنجلترا .

فقال الناس في الولايات المتحدة : مسكينة فرنسا هذه ! إنها عاونتنا في حربنا على الانجليز ، فلزام علينا أن نعاونها ونأخذ بناصرها في محنتها .

وقال آخرون : إن هذا القول ليستدعى الضحك ، فان الذي عاوننا هو الملك لويس السادس عشر ملك فرنسا وليس هؤلاء الغوغاء الذين قتلوه ، فعلينا أن نساعد إنجلترا على معاقبة فرنسا وعلى

إقرار القانون وإعادة النظام في أوروبا .
وهكذا انقسمت الولايات المتحدة حزبين : حزب ينادى
بشن الحرب على فرنسا ، وحزب يدعو إلى إعلان الحرب على
انجلترا .

وسارت الجماهير حاملة الأعلام الفرنسية الجديدة تهتف ،
وتشغب حول بيت واشنطن في فيلادلفيا عدة أيام متوالية .
وكانت تهدد بإخراجه من بيته بالقوة ، وباكراهه على معاونة
الجمهورية الفرنسية . ولم لا ؟ هل نسي أن الفرنسيين ساعدوا
المستعمرات الأمريكية في كفاحها في سبيل الجمهورية ؟

لا ! ان واشنطن لم ينس شيئاً من ذلك ، فهو لم ينس الجنود
الفرنسيين وهم يقفون مع الأمريكيين في « يورك تاون » جنباً إلى
جنب ، ولكنه لم ينس كذلك تلك المعركة التي حدثت في البرية
عندما وقف هو مع الانجليز يحارب الفرنسيين وحلفاءهم الهنود معاً .
لقد حارب مع فرنسا وضد فرنسا . وحارب مع انجلترا وضد
انجلترا، ولكنه إنما حارب معهما وضدهما في أمريكا ذاتها، لا في
أوروبا ، ولا زال أمام الأمريكيين الشيء الكثير يملونه للحماية
أنفسهم ولتعمير بلادهم من غير حاجة إلى أن يجرحهم أحد إلى حرب
جديدة .

ان ما تحتاجه هذه البلاد الآن هو السلام لتنتج غلاتها ، وتبنى
مصانعها ؛ فهي بحاجة إلى السلام لا إلى الحرب . رفض واشنطن
أن يعلن الحرب ، وجرد على نفسه ، بذلك ، هذه العاصفة الهوجاء من

الإهانات ولكنه تحملها صابراً لعلامة أنها لا أساس لها ، ولا سند من الواقع ، وأنها لن تطول .

ولكن الرجل كان متعباً كل التعب . وكان في أواخر مدة حكمه ، ويود أن يسلم منصب الرياسة إلى خلفه جون آدمز . وقال جون آدمز : لقد اغرورقت عيون الناس وهم يودعون أول رئيس لهم في آخر يوم من أيام عمله . وتجمعت الناس لاستقباله في كل مكان يمر به وهو متجه إلى بيته . فكأنوا يهتفون له ويصيحون بعبارات المديح والثناء ، وينظمون له حرس شرف في كل مكان . وليس من شك في أن ذلك قد أدخل السرور على قلبه . ألم يقل فيما بعد « إن رضى بلادي عني يحقق أكبر أمنية لي ، وكل مطمح أصبو إليه » .

وأخيراً وقفت العربية الجميلة البيضاء التي تجرها ثمانية جياد فارهة ، قبالة مدخل داره ، فها هو يرجع إليها من جديد ، سعيداً كل السعادة أن يعود « المزارع واشنجطن » ! . وبذلك شعرت نيللي نفسها . ففي هذا كتب « المزارع السعيد » إلى صديق له يقول : إنه من الآن يستقبل كل يوم جديد مع مطلع الشمس ، فيطوف بشتي مباني المنزل حتى يحين موعد الفطور في الساعة السابعة ، ثم يمتطي جواده ويطوف عليه بمزارعه حتى يحل موعد الغداء الذي يندر ألا يقابل فيه وجوهاً جديدة ، جاء أصحابها على حد قولهم ليقدّموا إليه تحياتهم . وبعد الغداء يترى قليلاً ثم يتنارل الشاي ؛ وعندئذ تكون الشمس قد آذنت بالغروب ، فيمضي إلى مكتبه ليرد على

ما وصله من خطابات . واكنه كان يشعر بشيء من التعب عندما تضاء الشموع .

على أنه مع تعبته الذى يمنعه عن كتابة الخطابات ليلاً ، لم يكن ليمتنع عن تدوين يومياته ومذكراته التى ألف أن يدونها دائماً .

وكان يوماً عيدى ميلاده الأخيرين حافلين بأحداث سعيدة يطيب له أن يدونها . ففي عام ١٧٩٨ فى عيد ميلاده السادس والستين حضر مع مارثا حفلة الرقص التى تقام له كل سنة فى الاسكندرية . ومع أن أيام مزاولته الرقص ولت فقد سره أن يشاهد نيللى الصغيرة المرححة ترقص مع لورانس لويس ابن أخته بيتى . وفى سنة ١٧٩٩ فى الثانى والعشرين من فبراير نزلت نيللى السلم فى ماونت فرنون مجلوة فى ثوب عرسها لتتزوج من لورانس لويس . هذا ولم يمض شهر نوفمبر حتى كان واشنجطن جداً ، قد أنجبت نيللى طفلة صغيرة .

وكان يوم الجمعة السادس من ديسمبر سنة ١٧٩٩ آخر يوم دون فيه شيئاً من مذكراته . وكان الثلج قد تساقط بكثرة يوم الخميس ، فلما عاد إلى البيت لتناول الغداء كانت قطع الثلج تكلل شعره ، وكانت رقبتة مبتلة . فرض فى يوم السبت مرضاً شديداً ، ولم يعيش أكثر من بضع ساعات ثم فارق الحياة .

وما كان الموت غريباً عليه ولا متعباً له . عندما حلت به الوفاة . فمات هادئاً مستريحاً مطمئناً كأنه فى غفوة ، فأغمض عينيه وفارق

الحياة؛ وانقضى هكذا ذلك الجزء من حياته الذى عرفه حق المعرفة
وعاشه أكرم عيش !

وفى عيد ميلاده انتشر خبر وفاته فى كل ركن من أركان
البلاد، وحزنت عليه الأمة كلها ... هذه الأمة التى قادها فى الحرب
وفى السلام . لقد خلق واشنجطن لنفسه مذكراً خالداً من مراكز
الشرف والمحبة فى قلوب مواطنيه ، وفى الدنيا كلها .

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

« . . . إني أعد جورج واشنطن زعيماً مخلصاً
ومحرراً لبلاده وأدرك كل الإدراك ما بذله من
جهود وما اضطلع به من كفاح . . . لقد كان
جورج واشنطن مثالا رائعا قدمته أمريكا لبلاد
العالم . . . وما أقوم به الآن من خدمات لمصر إنما
هو الواجب الملقى على عاتق رجل يكن لجورج
واشنطن الاحترام لما أداه لبلاده من خدمات .
والواقع أنني لا يسعني إلا أن ألاحظ وجوه الشبه
بين تاريخ مصر الحاضر والمراحل الأولى من
تاريخ أمريكا »

الرئيس محمد نجيب

من حديث له بمناسبة عيد ميلاد واشنطنون في ٢٢
فبراير سنة ١٩٥٣